

قصته سيف

ابتكار

بحث

تحليل

ادب

علم

تاريخ

الملازم محفوظ

سنة ١٣٥٢ هجرية

اهداء الرواية

إلى روح المرحوم والدي أهدي قصتي هذه ، تلك الروح الحية الخالدة التي أشعر تمام الشعور بوجودها بجوارى وبحومانها حول مكاني وبقبولها هديتي . وأزيد على ذلك بأنني موقن بشكرها وبتمنياتها الطيبة لي رغماً عن أن هذا الاحساس ليس مما اعتدنا ان نعهده ونفهمه

وانني لمستطيع القول مما تقدم بأن القصة لن تكون مبهمه فامضه على القارئ والقراء وخاصة على الشباب منهم المتوقد الذهن التواق لمعرفة اسرار هذه الحياة الغريبة فأرجو أن يجدها السكل أمامه سهلة ممتعة اذ يكفي بذل القليل من العناية لدى قراءة المقدمة وأظن ذلك بالمستطاع وأنه سيكون فعلاً . وعليه فأعني في ذلك عظيم ورجائي كبير وشكري جزيل ما

محمد محفوظ

المقدمة

وقد بما قال (سافونا رولا) للناس ان الارض تدور فدارت على رأسه الدائرة ونكل به القوم فأحرقوه حيا لانه - في عرفهم - قد تطق بالكفر . وجاء بالبهتان والزور - ثم دارت الايام دورتها وتطورت الاذهان وتبدلت العقول فقضى سناء العلم على ديجور الجهل ووضع صدق هذا الرجل فأعدوه ضحية واعتبروه شهيدا . وهكذا كان شأن العلماء والحكام بل والانبياء والمرسلين فقد لاقوا في الماضي الكثير من اذى بني جنسهم عند محاولوا اصلاح امورهم وهداية اخلاقهم .

أجل قابلهم قومهم بالشر والضرور . لكن لم يلبث اولئك المفتونين بكل بال قديم من عقيدة أو علوم أن تعرفوا خطأهم وخطلمهم فعادوا الى هدايتهم تائبين معظمين . هيجلين متبعين مبادئهم سائرين على درجهم تارة بعد ممانتهم وطورا في اخريات أيامهم .

ولست أبعي الاطناب في هذا الباب فامامكم كتب الدين والتاريخ والادب والعلم كلها طائفة باخبار ذلك مما لا يخفى أمره على الجميع . والآن أقدم للقراء مبدأ الايمان بتناسخ الارواح وأنا في مأمن من قتلهم أو حرقهم إياي لان للعقول قد نصجت والاذهان قد تقطعت وما عاد الحرق أو التعذيب ينفع في قتل المبادئ أو ابادة الافكار انما غاية الامر قد يلحقني من بعض قصار العقول والافهام

ضحكة استهزاء أو ابتسامة سخريه لا تلبث أن تتلاشى متى تغلبت
القوى المذكرة ورجحت كفة تحكيم العقل

لنذكر أولا شيئا عن الروح وعلاقتها بالجسم فنقول
ما جسم الانسان أو الحيوان أو أى كائن كان تدب فيه الحياة
سوى آلة تامة التكوين تتشكل بأشكال مختلفات طبقا لطبيعة خلقها
وما المحرك لهذه الاجسام إلا الروح التى تشابه تمام التشابه مع الكهرباء
فكما ان الكهرباء تدبر مختلف الآلات فان الروح تحرك
الانسان الضعيف والقوى ، الغبي والذكي كلا حسب استعداد جسمه
ومواهبه الجسدية أو العقلية وكذلك الحال في الحيوان والحشرات
وبالاختصار فالروح واحدة للجميع . وان تلك الآلة التى سميناها
بالانسان ليست إلا مجموعة مواد مركبة تحركها الحياة كما قدمنا وما
الحياة ذاتها إلا تلك الروح التى تنعش ملايين الجواهر الفردة
المكونة لتلك المجموعة فاذا محطمت هذه الآلة البشرية بفعل الموت
فستبقى بعض هذه الجواهر المذكورة واذا بقيت منها ما كانت
وظيفتها انعاش الذاكرة والاتصال بالمشغول حينئذ المشتغلون
بعلم المناجاة - وهو ليس موضوعنا - انه فى الامكان مناجاة أرواح بعض
الموتى بالرغم من كون ذلك من أصعب الامور لان حجم تلك
الجواهر أو الذرات أو الاكترونات انما هو صغير جدا لا يمكن
رؤيته با كبر مالدينا من المجاهر (والاسكوبات) وعليه فحياة

الانسان ليست في الجسم الذي نراه بل هي في ملايين الملايين من تلك الجواهر المفردة أو الذرات الدقيقة التي هي أقل من أصغر ما يستطيع العلم كشفه أو رؤيته بالمسكبرات فهذه الطوائف التي لا تعد من هذه الذرات أو الذريوات هي الجسم البشري الذي عندما ينتهار بالموت يبقى منه بعضها وقد يكون منها ما يكفي لانعاش الذرة فيكون ذلك هو الخلود الذي منه اتفقت جميع الاديان والمذاهب على ان الروح خالدة باقية لا تموت بموت الجسم

قلروح كما تقدم لا تنفي بفناء المادة بل تبقى وتعيش مئات وآلاف السنين - فيا أيها الانسان العاقل المفكر اصغ الى قليلا - ان روحك من امر ربك وهي خالدة أبدا وباقية بقاء سرمديا فليس الموت من صفاتها ولا الفناء من طبيعتها، أما الجسم ففان، فبالموت يتم موت جسدك أما روحك فتصعد الى حيث هناؤها أو شقاؤها . ولكن أين يكون المقر لهذه الروح طوال هذه الاجيال والقرون لحين قيام الساعة . وكيف تسعد وكيف تشقى .

ان الروح لا تشعر إلا بالمشاعر المادية ولا تحس إلا بالحواس الجسدية لأنها ماهي إلا روح ولولا ذلك لكان نصيبها الفناء ولكن ليس الفناء والموت من صفاتها كما أسلفنا .

فليس هناك طريق لاسعادها أو لاشقائها الا حلولها في اجسام مقدر لها حياة سعيدة أو نشقى في أخرى محكوم عليها بالشقاء والآلام

وبما ان الناس تتوالد وتموت مع بقاء الروح حية خالدة كما أسلفنا
فليس من المستبعد أو المستغرب أن تحمل هذه الروح التي ماتت
صاحبها في جسم آخر جديد وهذا ما نسميه بالتجسد الثاني وقد
يتكرر ذلك فيكون التجسد الثالث والرابع وهكذا .

فيا أيها الانسان ان كنت ترغب أن تحمل روحك بعد موتك
في جسم انسان سعيد فتحيا حياة سعيدة فاستغفر ربك وتب اليه
والا فسوف تشقى بحلول روحك بجسم انسان شقي أو رجما جسم
حيوان أو حشرة وهذا هو العذاب الاليم .

فاعمل الصالح من العمل واجعل من شيمتك التواضع ولا تأنف
أن تؤاكل الفقير أو تجالس الحقير ، ولا تقتل النفس التي حرم الله
قتلها إلا بالحق ، ولا تعذب روحا فتوضع في حفرة ضيقة مظلمة
وتسمى جيفة قدرة منتنة ويختلط جسمك الرطب بالتراب الى يوم
العذاب ومن بعد موتك الى يوم البعث قد تتجسد روحك في جسم
حشرة حقيرة أو حيوان صغير فيطأك اولادك أو يعذبك احفادك ،
وقد يجسسون عنك طعامك وينسكون بك تنكيلا وانت تعرفهم وهم
لا يعرفون . وقد تعرف على زوجتك الجميلة أم اولادك وقد مت عنها
وتركتها ولكن للأسف هي لا تعرف من انت ولا يدركك التفتاح
واياها فليس لك لسان للتخاطب ولا دموع لتعبر بها عما يجول في
قلبك من حزن اليم وعذاب مبرح فتصرخ من فرط عذابك وألمك

ولكنهم سرعان ما ينتفضون على جسمك الرقيق بالهراوات فيقتلونك
ويطرحون بجثتك في الخرائب والطرفات وهكذا يكون أمرك .
وقد يتكرر ويتنوع ذلك مع مرور الزمن الى ان يكشف الله
عناك العذاب .

وقد يموت الرجل وابنه في بطن أمه علقة ليس بها الروح فما
يولد هذا الطفل ويشب حتى تراه يقام ما كان يفعله أباه في حياته
ويشابهه في بعض أعماله وافعاله وحركاته وسكناته وهو لم ير ذلك
الوالد . أليس هذا يتعلق بالروح ؟ أليس لتكوين هذا الطفل وذرات
جسمه صلة بتكوين وذرات ذلك الاب الذي انهار جسمه بالموت
ودفن وانطوى تحت التراب ؟ .

الايطراً احيانا على بعض اصحاب العقول النيره من الناس ذكريات
غريبة وخيالات مبهمة أو يعرفون على امكنة فيخال اليهم انهم عرفوها
ووطأوها من قبل بينما هم لم يسمعوا بخبرها ؟ ألا تراهم اذا بلغ احيانا
آذانهم لحن من الالحان تنور عواطفهم ويسبح بهم خيالهم الى عوالم
أخرى غير منظورة أو معروفة ؟ اليست هذه كلها حقائق يمكن لبعض
الناس فهمها وادراك كنهها ولو بدت صعبة معقدة امام الآخرين .

انى ما قصدت بهذه المقدمة التوسع في هذا العلم الجليل ولا نشر
مبادئه قبل ان امهد لها السبيل وانما الغرض اعطاء فكرة صغيرة حتى
يمكن للقارئات والقراء فهم القصة فيحكون على مبدئها ومؤلفها ؟

المؤلف

الفصل الاول

كانت أروقة القصر وبهوه الكبير مزينة منسقة وقد زادت أنواره وصفت أصغر أزهاره ورتبت قطع آثائه في أركانه بحالة مناسبة، وانتشر المدعوون بين أرجائه هنا وهناك وقد ارتدى الرجال منهم أردية السهرة الأنيقة، وتدفرت السيدات أجل ما لديهن من الثياب الرشيقة، وتحملن بأنحرما اقتنيته من الحلى وأمن ما امتلكته من الجواهر . فكان البعض يرقص في البهوه على نغمات (السينفونيك) بينما فضل الآخر الاعتزال والتسار في المعرات أو التمشي وتجاذب أطراف الحديث في حديقة القصر الغناء وقد ملأها وزانتها عناقيد ثياب البندقية الضئيلة الأنوار المدلاة بين أفانين الأشجار .

أخذ الداعيان الكريمان المستر والمستر (وارنر) يطوفان بين ضيوفهما كل بدوره فيلاطقان هذا ويضاحكان ذلك أو تلك ويباسطان الجميع وجلهم من طبقتهم فكان بينهم أكبر من وجد في مدينة نيويورك من ملوك المال وجلاوزة الصناعات والمتاجر . استمر القوم في مسائهم هذا وهم في بشر ومسرة الى أن مضى من الليل بعضه فتفقد المستر وارنر ابنته بين ضيوفه فما وجدها .

فاستقصى خبرها حتى انفاها وقد جلست بمعزل في الشرفة المطلة على حديقة القصر تنظر الى سكون الافق وتتعجب كلما ارتفع من حين لآخر صدى الضحكات العذبة المنبعثة من بين ممشى الحديقة الفسيحة ومن تحت أشجارها الوارفة . اتكأت سوزان وارنر على مقعدها تراقب هذا الهدوء الشامل وقد فضلته على ضجة الاروقة وعجيج البهو . فعاتب المستر وارنر ابنته سوزان على ذلك ، وكيف لا يعاتبها ولم تك تلك الحفلة الا لانها قد آمنت في ليلتها تلك العتمة الثامن عشر من سنى حياتها .

فأصلحت سوزان من خطئها بأن دخلت البهو وشاركت والديها في مهمتهما حتى انتصف الليل وانتهى الحفل وتفرق السكلى وهم شاكرون داعون لسوزان بالهناء وطول البقاء .

مضى يومان على هذه الحفلة استراح في خلالها أهل القصر من الجهود التي بذلوها فيها حتى كانت درة حفلات ذلك المرسم وحديث سمر المحافل والمجامع . فاختلى المستر وارنر وهو رجل طيب القلب كريه ، واسع الصدر سليمه ، طويل القامة ، كبير الطامة ، لا تفارقه الابتسامة رغم أنه قد أتم الستين من عمره — أقول اختلى المستر وارنر بزوجه المسز وارنر وهى سيدة فضلى تصغر زوجها بسنوات ثلاث ولكن لا تزال ترى على وجهها مسحة من جمال مضى وفي عينها أثر من سحر انقضى — فدار بينهما حديث خافت عن أيام

صباها الذي ولي ولن يعود وكيف أن الله لم يرزقهما مولودا فيرت
أملاكهما الواسعة وأموالها المكدسة فاضطرا الى تبني سوزان تلك
المجهولة المولد وقد عثرا بها وهي رضية بريئة في ملبأ للأطفال
بمدينة بوستن فراقهما ما عليها من صحة وجمال وتوسعا فيها حميد
السجيا والخصال فنبتت في رعايتهما وهي لا تعرف لها أبا شرفوا
غير المستر وارز ولا أما حنونا غير السيدة مارجریت عقيلته —
لقد اخفيا عنها بل وعن الجميع تلك الحقيقة فانعم بهما من فعل
حميد وأحسن به من عمل مجيد . ثم تدرج بهما الحديث فتناول
أخلاق الفتاة وكيف أنها قد اكرت أخيرا من الاسترسال في
التفكير وعمقت الهدوء وأحبت العزلة وكرهت الحياة العصرية
الصاخبة — وما انتهى هذا الحديث حتى اشعل المستر وارز
سيجاره الكبير وترك زوجته تلاعب ببنائها الاخضر وقصد
سوزان في غرفتها وكانت جالسة على مقعدھا المستطيل وقد مدت
ساقها وهي تطالع في كتاب يدعى (قاذرنابل) وقد طبعت على غلافه
صورة لأبي الهول وأهرامه ثم ما لبثت أن ألفت هذا الكتاب
بجانبا وحدت نفسها وهي تتهد قائلة .

(أتى لي أن أشاهد هذه البلاد — بلاد السحر والجمال — بلاد
الشمس المشرقة والأشجار المورقة — حيث الزهور والمطور ، والبهجة

والسرور - أنى لأشعر نحو تلك البلاد بشوق - وأحن لذلك الشرق -
موطن الشعر والخيال والروح)

دخل عليها المس-تر وارتر وهى على حالها هذا فرت خدها
وداعب شعرها اللعني الجميل وهو يقول لها بأما
(ما رأيك يا سوزان وقد اتفقنا على أن نرح إلى المصيف بد
أسبوع على الأكثر)

فقال وجه سوزان فرحا وقبلة ولدها سرورا ووضعت كتابها
على المنضدة وهى تلقى نظرة من نافذة غرفتها إلى القضاء الواسع
الذى تطل عليه .

وهي عالم يعض الأسبوع حتى كانت أمرة وارتر فى مصيفها على
شاطئ (اللوئج إيلاند) البديع حيث كانت ترح فيه جماعات الفتيان
والفتيات من أبناء أكبر الأسر وهم بملابس السباحة فكانوا تارة
يعترفون الرمال فى ظل المظلات الكبيرة المزركشة المنتشرة على
الشاطئ وطورا يسبحون ويتراشقون بالكرة فى الماء وهم يضجون
ويتهللون .

أما سوزان فكانت قبلة الانظار فى هذا المصيف . كيف لا وقد
تم نوحها فى عامها وبرز نهداها وتورد خداه فكانت آية ملاحظة
ورشاقة .

وقد أقدم أكثر الشبان على خطب ودها فكان الاخفاق نصيبهم

والخيبة ما كلفهم إذ أعرضت عنهم ونأت بجانبها وولتهم ظهرها وقضت وقتها سباحة في اليم لشغفها وتعلقها بهذه الرياضة - الى أن أتى يوم صفا أديعه واعتزل نسيمه . فتزلت كعادتها الى البحر لأجل رياضتها المحبوبة وما زالت تمارسها فيضحك لها الماء ويداعبها طيب الهواء حتى تدرجت الى الداخل على مسافة من الشاطئ اعتادت الوصول اليها في مثل هذه الايام المشرقة - وإذا بسحابة سوداء فائمة قد ظهرت فجأة في الأفق فأظلم الجو وبرد الريح واهبت الامواج وما هي إلا برهة يسيرة حتى هاج المحيط وماج فجنح السابحون والسابحات الى الشاطئ يلتصقون اكوأخهم فاتجهت سوزان صوب البر وهي تغالب الامواج المتزايدة وتكافح ذلك المحيط الغاضب الصاخب - ولكن أنى لها سرعة الوصول الى الشاطئ وهي على مسافة لا تزال بعيدة عنه وقد كل ساعداها وبدأ جسمها الرطب يعجز عن امكان اتمام المرحلة فأرسلت صرخة في الجو طالبة العون والعون من فتيان الشاطئ وأبطال المصيف - ولكن أين كان هؤلاء - فقد تفرقوا واشتقوا وتواروا أمام غضب الطبيعة .

أما مراقب الشاطئ وهو رجل كهل فقد حاول النزول للأخذ بيدها إلا أنه لم يلبث ان تراجع القهقري أمام هذه الامواج الغاضبة . رأى المستر وادنز وزوجه الموقف فكاد يخن الرجل من فرط حيرته وتعنى لو عاد اليه عيابه لحظة وقوى على السباحة حتى ينقذها

وصرخت الممزر وارتر صراخا يفتت الاكباد وهي يائسة وأيقن
الجميع هلاكها .

هنا نجات قدرة الله فبرز فتى من بين الاكواخ وخلع ما تيسر
له خلعه من ثيابه وزج بنفسه في هذه النجاة المتلاطمة وما زال
يصارع الموج ويغالب هذا الخضم حتى وصل الي الفتاة في اللحظة
المناسبة فأمسك بشعرها وجذبها خلفه وما زال بها حتى أوصلها
الشاطئ وقد نالت منه الامواج الشيء الكثير ، وما كادا يتلمسان
اليابسة حتى سقطا مغشيا عليهما فأصرع الناس الي اسعافهما حتى
عادت انيها الحياة وبدأت الحرارة تدب في جسميهما فنقلهما المستر
وارتر الي داره بالمصيف حيث وافاها طبيب الامرة بعقاقيره ومنعشاته .
وما مضت ساعة من الزمن حتى كان الفتى والفتاة على حالة حسنة
وقد أقبل الوالدان على فتاتهما عنقا وتقبيللا وعلى الفتى حمدا وشكراً
مما أخجله فطلب من مضيغه قبعته للخروج ولكن أبي الوالدان
عليه هذا الحق واجتمع الكل وقد بدا عليهم البشر بغرفة
سوزان وقد تمددت على سريرها بغية الراحة من فرط ما ألم بها من
تعب ودارت بينهم الاحاديث السارة ومنها عرفوا بأن الفتى ليس
بأصريكي بل أنه من هجان مصر ويدعى (فؤاد) وقد قدم (اللونج
إيلاند) متنزها مع قريب له بالمفوضية المصرية بواشنطن وذلك

بعد ان انتهى من دروسه العليا بجامعة شيكاغو ونيله الاجازة وانه يقضى وقتا حتى يحين ميعاد سفره الى مصر .

تردد الفتى على دار القوم بضعة ايام قبل عودتهم الى قصرهم بنيويورك فاكل على مائدة آل وارنر مرات . وشرب الشى معهم دفعات . وتتره مع سوزان اوقات . ولعب معها ساعات . وانقردها سويمات . حتى زادت روابط الفتهما ودبت بينها روح جديدة هي روح العطف زادها كرايام فكانت حبا فغراما فهياما ثم عزما وانفا على الزواج .

كانت هذه النتيجة المنتظرة لكل ما تقدم من الحوادث اذا نظرنا الى ميول الفتاة وشعورها

علم والد الفتاة بالامر فعظم عليه ولكنه لم يسمعه الا الموافقة ثم التسليم وهو على مضض .

يادر فؤاد الى والده فابرق اليه ينبئه بامر خطوبته فدهش . الا انه لما علم بالموضوع من واشنطنون لم يلبث ايضا أن رضخ فارسل بالموافقة .

عقد القران بمنزل العروس بعد ان قامت المفوضية بكل ما هو لازم في مثل هذه الحالات وقد تولى صيغة العقد امامها الشيخ .

كانت حفلة بسيطة صغيرة كالبالبا جميع سافر اثرها العروسان السعيدان لمصر لاستقبال حياة جديدة . فاستقلا الباخرة

وأنوم بين عاملين . عامل الفرح من أمر الزواج وعامل
التأثر من الفراق . الى أن دوى صفير الباخرة وتحركت الاتها فقضى
ذلك على الموقف وانتهى الامر

ولا حاجة للاسهاب في وصف الباخرة وطريقة سفر العروسين
أو هدوء البحر وهياجه أو مدار بينهما من الاحاديث اذ ان ذلك
تخويه كل قصة ورواية بل تقتضب كل هذا ونود الى مصر حيث
والد فتانا فؤاد فنجده يقطن بمفرده في دار فسيحة البناء واسعة
الأرجاء تحوطها حديقة كبيرة غناء تقع على الساحل الغربي بمدينة
الاسكندرية وعلى مسافة منها وقد أحاطها البحر من أمامها وبحيرة
مربوط على مقربة من خلفها وهي ترسل اليها من حين لآخر
بأسراب البط والقطا فيحط على أسوارها فيحمن من شكلها ويزيد
من رونقها وبهاؤها .

جلس رب الدار على مقعده في مدخل قصره وهو يرسل البصر
على المحيط الأزرق أمامه وهو يقول لنفسه (الاكث تم زواج
فؤاد وصار رجلا وعمما قريب سيصبح رب أسرة فيحق لي أن أخبره
بذلك السر الرهيب الذي كتتمته عنه زمنا - نعم واجب على أن
أعرفه بأننى خاله ولست بأبيه كما كان يدعوني ولقد آن أن يدرك
أن والده قد اختفى وانقطعت أخباره منذ سنين حتى أمسينا لا
نعرف له مصيرا - أصدار من أهل القبور ، أم لا يزال حيا يرزق -

لأنك أن فؤاد سيدهش لذلك وتأخذه هذه الحقيقة وسيلحة
بعض النعم - فالأفضل أن أبقى هذا الموضوع الآن ولا أعكر
صفو أيام زواجه الأولى)

قارت الباخرة أن تصل فبارق فؤاد إلى والده يبلغه فذهب على
التو وما وافى الوقت المقصود حتى ظهرت الباخرة وألقت مراسيها
على الرصيف وأخذ رجال الشحنة والصحة والرسوم يقوم كل بواجبه
المعلوم حتى إذا ما انتهت هذه الاجراءات صعد الوالد الباخرة
فالتقى بابنه فؤاد فعانقه عنق الأب الشفوق ، وأقبل على عروسه
مسلمًا مرحبًا ونزل الجميع إلى البر وقد علام السرور فاستقلوا سيارة
إلى قصرهم ولا تسلم عن البهجة التي صمت الجميع وبخاصة سوزان
التي خالت كل ما يحيطها ووقع على نظرها كأنه يضحك لها ويرحب
بقدمها .

وصلوا إلى الدار وكانت تعج بازوار والمهنتين وأقيمت الحفلات
ومدت المآدب وأقبل الأقارب والأصدقاء والأعزاء من كل فج
وصوب لتقديم التهاني والقيام بواجب التبريك .

مضت أيام على فؤاد وعروسه الأمر يكتية الجميلة وهما على أسعد
حال يتمتعان بكل ضرب من ضروب اللهو والسرور فكانت
أوقانهما تفيض سعادة وترجع هناء إلى أن بكر فؤاد ذات يوم إلى
البحر أثناء نوم أهل القصر فودع والده في نومه بنظرة وعروسه

في اغفائها بقبلة وأسرع الى ثجمته الزرقاء وهي كوثره (زورقه)
المفضل وقد قال لخادمه انه رأى حلما أزعبه فألقى نومه وانه ذاهب
الى رحلة في البحر لا يعرف مداها في هذا الفجر

وفي ضحى اليوم استغرب الوالد وسوزان من أمر فؤاد فتناولوا
طعام افطارهما بسكون وما انتبيا منه حتى بدأت سوزان تفكر
في سر هذه الرحلة العجائية وكان شعورها نحوها غريبا . وأدرك
الوالد مايجول بخاطرها وأراد أن يحول تيار فكرها بالرغم من
انشغال باله هو أيضا فعرض عليها أن ترافقه الى أقبية القصر وهي
أعز شيء لديه بعد فؤاد وعروسه .

وكانت سوزان قد سمعت عن محتوياتها التاريخية التي ترجع
الى قرون مضت ، ولكن كان قد ألهاها عنها حلاوة الحب وميعة
الشباب فلم تفكر من قبل اليوم أن تدع الخروج مع زوجها للصيد
أو التريض جانبا وتقصد الى مثل هذه الامكنة الرطبة ، ولكن كان
هذا الصباح النسب وقت لرؤية هذه الاقبية فلاقت الدعوى هوى
في نفسها ونزلا اليها

هال سوزان مارأته من تقيس الاسلحة القديمة والدروع المذهبية
والصوره المعلقة وكان الوالد يشرح لها بان-كايزية لابأس بها عن
محتوياتها وهو يتبخر - فيقول لها (هذا درع جدى ارايموذك
قوس جدى السابع) وحقا كان غريبا من هذه الاسرة الاحتفاظ

بـكل هذه الخلفات متوارثة ايها صائنتها مثل هذه الصيانة .
ومازالا ينتقلان من قبولا آخر حتى استقر نظرها على سيف بديع
الصنع فاقتربت منه سوزان معجبة به ولكن الوالد علا وجهه
الاضطراب قليلا لدى رؤيته وتمم ببعض كلمات بالعربية لم تفهمها
سوزان مما زاد من فضولها فسألته الفتاة عن هذا السيف فصدق
فيه قليلا بينما وقع بصرها الزائع في هذه المحتويات على صورة
زيتية معلقة فوق ذلك السيف وما تبينتها حتى التفتها لضابط عربي
في الزي القديم تشبه ملامح وجه حماها تمام الشبه وقد كتبت
اسفلها بالعربية عبارة طلبت من حماها أن ينقلها لها الى الانكليزية
وهذه ترجمتها (هذه صورة لضابط حسن بن العباس ياور السلطان
والذي كان له الشأن الأكبر في البلاط وقد قتل نفسه بهذا السيف)
فقلت سوزان وقد علت وجهها الكآبة (انه لشيء محزن - ولكن
ألا ترى انه يشبهك يا ابتاه تمام الشبه) فقال لها (نعم يا بنتي ان
قصته مع هذا السيف المعلق امامك هي قصة طويل عليك شرحها
وقد حفظها والدي عن جدي عن جده وقصها علي وما هذا
الضابط الا جد قديم لي)

— فقالت سوزان وقد شوقها الامر (أرجوك أن
تقصها علي) فاجابها (انها لقصة مؤلمة يا بنتي العزيزة واسوف
أقصها عليك في وقت آخر) ثم أخذ بيدها الى خارج المكان وهو

راجهم من الذكري، وما وصلنا الحديقة المشرفة على البحر حتى جلسا على أريكة فكان كل حديث سوزان يدور حول هذه القصة بينما لزم هو الصمت مما زاد شغفها وفضولها، وبينما هو مطرق الرأس في تفكيره غائلته سوزان وعادت الى تلك الاقبية حيث السيف فاطالت النظر اليه ثم انزعته من مكانه ولكن تصادف أن أفلت منها البصر الى الصورة المعلقة فوقه فراعها منها ما تخيلته فيها من أن صاحبها يحدقها ببصره محركا شفقيه فارتجفت واصططكت ركبتيها والقت السيف بارض القبو وهرولت الى حيث حماها فارتمت على الاركة بجواره وقد عقد الرعب والفرع لسانها. وما رأى منها ذلك حتى جزع أشد الجزع وما زال بها يهدى من روعها حتى اطأأت لنفسها فقالت له (لقد أروعيتني تلك الصورة وذلك السيف وقد القيته على الارض) فقال لها (وما ذهب بك اليهما بمفردك - وان قصتهما سوف ترعبك أكثر من ذلك اذا ما سمعتينها) فأجابته قائلة (اننى أريد سماع هذه القصة وأتوق شوقا لها فارجوك قصها على)

- وما زالت تلتح وتلحف عليه حتى قبل أن يقصها عليها فقال :
(اسمعى يا بنتى العزيزة ان قصة هذا السيف عجيبة وساقصها عليك الآن فانصتى اليها ولا تحاولين مقاطعتي فيها حتى لا تخونني
الذائكة) فوعده بذلك فقال :-

الفصل الثاني

منذ ... سبعة قرون تقريبا ... في أواخر الدولة الفاطمية التي كانت تحكم مصر .. وفي يوم من أيام الصيف في ذلك الزمن . كان أهل مصر يحتفلون بعيد وفاة النيل وكان هذا عندهم بمثابة عيد قومي عظيم فكانت الاعلام خافتة في كل مكان وواجهات مبانيهم البيضاء مزينة أجمل زينة وتبارت الموسيقى تعزف بأناشيدها الشجية بينما أخذت الاطفال تفرح بملابسها الجديدة ذات الالوان الزاهية . وكانت الرجال تسير زرافات وهم بالملابس البيضاء ، وتحثت النساء بحليهن الذهبية والفضية ولكنهن اعتزلن عن الرجال واشتركن في العيد وهن محتجيات بنقابهن الكثيف وكان يطير فوق رؤوس الجميع الحمام الابيض الذي كان الاهلون يطاقون سراحه تقوؤلا بالسلام واليسر وتبركا بالخير واليمن في هذا العيد الدال على مباح وفاة أهل مصر لنيلهم منذ الابد واعترافهم بجميله عليهم وهو منبع أرزاقهم وسبب حياتهم وان اختافت دولهم وتباينت نحلمهم . احتشدت الجموع صفوفا متراصة والبشر يعلو محياها منتظرة موكب السلطان وما هي الا لحظة حتى لمت السيوف وصهلت الخيول فكان هذا إيذانا بقرب اقتراب الراكب فأفسح رجال الشحنة الطريق وبعد هنيهة

مع القوم فرع الطبول وأصوات المزامير فهتف الهاتنون وصاح
المنادون (السلطان - السلطان - الله ناصر السلطان)

ومرت مقدمة الموكب وقد جمعت الفرسان على اختلاف فصائلهم
ومتنوع أعلامهم وتلائم الرماة بنياطهم واقواسهم ونشابهم وقد جر
البعض خلفهم المنجنيقات ثم تبع هؤلاء الرجالة. وكانت تتقدم جميع
هذه الفرق موسيقاها وأعلامها (وما كانت تلك الموسيقات الا
نوعا من الطبل الصغير ذا الشكل المستطيل لا يزال أشباهه بأيدي
الهنود الحر للآن وجملة من الابواق الطويلة التي كانت شائعة في
ذلك العصر) ثم مرت صفوف الجنود التي لا عدد لها ولا حصر
وهم بملابسهم الزاهية الجميلة ومن يريد أن يتحقق جمال هذا الهندام ما عليه
الا مشاهدة قصيدة من فصائل جنود الزواف الحديثة من أبناء
المغرب الأقصى حيث يبالح الفرنسيون في المحافظة على هذه الأزياء
القديمة لأمر يتوهمونه وهو انه اذا لبست هؤلاء الجنود الملابس
الأفريقية تشبهوا بهم وساووه في مراتهم وما كانوا يتوقعون
أن هذا اللباس كان أكبر مساعده هؤلاء الجنود البواسل على الحركة
في الحرب العالمية الكبرى لانسجامه عليهم وموافقته لأجسادهم
فلقوا النصر ونالوا تقدير الجميع وكانوا برشافتهم وخفة حركاتهم
مضربا للأمثال .

ثم سار بعد ذلك رجال القضاء فالهندسون بملابسهم الطويلة

ذات الرمانات المدلاة من الكتف ثم مرت زمرة من كل أهل
حرفة وصناعة يتقدم كل واحدة منها شيخها وكبيرها ويحيط الكل
من الجانبين صفان من رجال الشرطة بلا بسهم الحمراء الصافية. ثم ظهر
الحرس الخاص ثم السلطان يحيط به حاشيته وهو تحت جواده العالی
الأشهب وعلى يساره في قليل من الخلف وزيره المشير بالصالح ويتبع
السلطان فرسانه وأعوانه وجملة أعلامه وراياته وما وقع نظر الشعب
على السلطان حتى كاد الهتاف يصم الأذان وقد صدر من قلوب
خالصة أمرها ما كساه الله وجه السلطان من ظل من الهيبة والوقار
وما زانه به من لحية ناصعة البياض وكانت نظراته عينيه تدل على
هزم وبأس وأعماله وأعماله تكن عن تقى وزهد ففرقت الأمة أن
سلطانها لا يفكر إلا في صالحها ولا يعيش إلا لرفاهيتها فكان خليقا
بها أن تقابل سلطانها بهذه الحفاوة وهذا الترحيب البالغين حد
الوصف الدالان على ما تمكنه قلوبها من المحبة والاختلاص لهذا
السلطان العادل .

سار الموكب بحمته هذا الجلال حتى وصل إلى القصر السلطاني
فتفرقت تلك الجماهير إلى منزهات المدينة وحدائقها حيث الزهور
والرياحين لتخلع عنها عاما تقضى بخيره وشره وتستقبل موسما
جديدا وهي في بهجة وحبور .

وصل السلطان الى القصر فانتهى مهرجان وابتدأ آخر في الايوان وهو المسكان انعمتد اقامته فيه في مثل هذا الاوان من كل عام وكان يجمع حكام البلاد وضباطها وعلماءها وكل ذى حيوية ومقام . فجلس السلطان على اريكته على ارتفاع بضع درجات من ارض تلك القاعة الكبرى ذات السقف العالى والاعمدة الرخامية المتقابلة وقد ظلت الاريكة خمائل من القטיפنة المذهبة وجنس الى يمينه لاسفل وزيره (الصالح) وهو رجل نحيل الجسم مصفر الوجه باد على عينيه اثر من التعب لفرط انكباب صاحبهما على التفكير في مصالح الدولة والعمل لمجهد في ضبط شئونها وقد شاب شعر رأسه وبرزت وجنتاه .

ووقف الى يسار السلطان لاسفل الياور المقرب (حسن) —

ولما اكتمل العمل على هذا النظام استأذن في الدخول كبير المنجمين كما هي العادة في هذا العيد . وقد حضر ليقول نبوآته عن العام المقبل وكان أمره لا يتعدى الفكاهة فسمح السلطان له وهو يقول (كذب المنجمون ولو صدقوا — تقدم وهات ما عندك لهذا العام) فتقدم ذلك المنجم البشع المنظر حتى سار على مقربة من السلطان ثم سجد وما زال كذلك حتى أمره السلطان بالنهوض فاستقام وأخرج من جعبته عصا قصيرة وقنينة صنع بها ناراً ثم أدار فيها البخور فساد الصمت وقد انطلق المنجم بقول بصوته الاجش الرهيب ادعيته

ورطانتة ثم اعتدل في جلسته وقد حجبته الدخان الأزرق الملون الكثيف وقال
(أيها السلطان العادل أرى روحين بين أفراد شعبك تحاولان
أن تتمزجا فإذا قدر لهما واجتمعتا فقد تم لمصر سؤدها ومجدها
وإذا افرقتا ولم توفقهما الظروف للتقارب فالويل لمصر إذ سيصيبها
الذل والخنوع قرونًا سبعة حتى تعودان للظهور في العالم مرة أخرى
لانعام محاولتهما التي اذا تمت فستستعيد مصر مجدها ثانيا شيئًا فشيئًا
والايتكرر ذلك على مدى الدهور فمن حظ مصر أيها السلطان
العادل أن لانفوت هذه الفرصة ويتم التوفيق لهاتين النفسين) فقال
السلطان « ومن هما واين مكانهما حتى تقوم مصر بأسرها بهذا
التوفيق » فقال المنجم (هنا تتجلى المقدرة الالهية فهذا مالا يعلمه
الا الله وهو علام الغيوب وستكشفه لنا الايام) ثم عكف على
مبخرته ثانيا وزادها بخورا وأفاوية

ثم استقام وقال (ضيأتك في أقرب آن أيها السلطان الآمن .
أخبار ثلاثة . ولكنها ان أسرك فلا تجزع منها لانه سيزول شرها
بأذن الله على يديك بحسن تدبيرك وحكيم تصرفك وعناية الله
سبحانه وتعالى ورعايته) فقال السلطان وقد أطرق قليلا .

(نعم ياغراب البين . هات الثالثة الباقية) فزاد المنجم بخوره
دفعة أخرى ثم استوى ولكن الملع كان باديا على وجهه هذه المرة
فقال بصوت اشبه بالعواء (أيها السلطان ان الثالثة لن تهلك ولن

ثم أي شخص آخر غير شخصي أنا» ثم سكت قليلا واستأنف قوله
« استودعك الله أيها السلطان — استودع الله هذا الحفل الآخر .
وهذا النور الباهر وأن ليأتي لهي آخر عهدى بكم . فلن تروني
بعد اليوم . فسأذهب الى عالم اوسع مجالا لي من عالمكم هذا » ثم
ضحك ضحكة مروعة غادر على اثرها المكان وقد ترك الجميع
وراءه وهم ذاهلون الى ان افاق القوم على ارتفاع صوت الناي
وضربات الدف والصنوج ودخول الراقصات .

كانت هذه الحوادث تجري في القصر بينما كانت تجري جياذ ثلاثة .
تركبها فرسان ثلاثة في طارق ثلاث تجتمع في ملتقى واحد في باب
المدينة — وما اجتمع هؤلاء الفرسان عند ملتقى هذه الطرق حتى
وقفوا لحظة حيا فيها بعضهم بعضا بصمت وسكون ثم ساروا صوب
القصر وما وصلوه حتى دخل أحد الحراس على السلطان وبعد أن
قبل الارض أمامه كما كان متبعاً في ذلك الوقت قال (مولاي السلطان
العاذل — بالباب ثلاث رسل يلحون في الدخول) فصمت السلطان
قليلا وقال (يؤذن لهم) فدخل ثلاثهم وما اقتربوا من السلطان
حتى وقفوا صفا واحداً وركعوا ثم استووا منتظرين أن يأذن لهم
السلطان بالكلام فتفرس فيهم السلطان فإنا بأحدهم صديقي من الفرنجة
والباقيان مصريان فأوماً الى الصليبي أن يتقدم فخطا للامام خطوتين
ثم سجد للسلطان ثانياً ثم استوى وقدم الى السلطان مظروفاً تسلمه

منه الياور (حمن) واوصله الى الملقان الذي فضه بيده وقرأ ما فيه
فتجهم وجهه ودفع بالمظروف الى وزيره ثم التفت بعصب الى الرسول
قائلا (قل لمولاك الذي بعثك بهذا اليانا اتنا معشر اشرقيين نحير
من استجارنا فلن يخيفنا تهديده باجتياح املاكنا ولا يسوغ له
أن يأخذ علينا بعمل نفر من البدو الخارجين عن سلطانتنا وانه من
واجبنا اذا ما لجأ اليانا مظلوم أن نحديه من شر ظلمته وبئس الظالمون
المعتدون أنتم . فليفعل مولاك ما بدا له فنحن على استعداد لملاقاته
اذا حدثته نفسه بالخروج اليانا والله ولينا وناصرنا ودين نعم النصير)
ثم أمر الرسول الثاني بالتقدم ففعل مثل الاول واذا به نذير
من حاكم صعيد مصر العمليا بان النيل قد طغى وزاد ، فاغرق
البلاد ، وشنت العباد ، وهدد باقي الصعيد بشر مستطير ، فاستعاذ
السلطان بالله من ذلك وأمر كبير المهندسين بان يأخذ مهندسيه
وأعوانه ويغادر القصر على التو لتلك الجهات لعمل ما فيه دفع
الضرور وزوال الخطر .

وأخيراً تقدم الرسول الثالث برسالته من أمير حلفا بان قبائل
الجنوب ثارت على عماله ورفضت دفع الجزية وهي تزحف بمجموع
كثيفة للشمال مهددة اراضي مصر العمليا فانتم السلطان وأمر الرسل
بالانصراف ثم فاض الحفل فخرج الكل وهم واجزون يصبون اللعنات
على ذلك المشعوذ الكريه المنظر النكر الصوت .

قصد السلطان غرفة المشاورة وكانت صغيرة بسيطة الاثاث فليانته
توسطها منضدة كبيرة عليها ادوات للكتابة من مقالم ومحابر
ولفائف من الورق وشمعدانان كبيران فضيان ، وما دخلها حتى
امر ياوره حين فواقاه بالصالح وزيره ومستشار اموره فجلسا معا
يعملان الفكر وقت اوصدت عليهما ابواب الغرفة .

والآن نترجمها في خلوتهما ونجول بك قليلا في ارجاء هذا
القصر وردته البالغة حد الرواق والماء . فمن اعمدة قدت من
الرخام المرصق اللامع وقد صفت صفوفها متوازية لأبواب جميلة
التركيب بدیعة متناسقة الى نواقد ومشربيات آية في الحسن ودقة
الصنع وقد زينت سقوف حجره العديدة بالقباب ذات الاشكال
الهندسية المختلفة المحلاة مناورها بالقسيفساء وقد تدلت من اعناقها
القناديل النحاسية الملونة المزخرفة . ناهيك بالفرش الوثير والاثاث
الكثير والعدد الكبير من الخصيان والندمان والاماء والارقاء
والحراس والرفقاء الى سائر ما احتوته امثال هذه القصور في تلك
الدهور وفانت المصور — الى ان نعر بالامير (فائز) لجل السلطان
وهو يسير بين غرف ذلك القصر وردته بمد ان اعيناه المطاف
في حدائمه المتجاورات المتراميات الاطراف كأنه يفتش عن احدقاب
عنه او يتفقد شيئا فقد منه ولكنه ما وجد انسانا وما عثر على مفقود .
قلعه كان يقتل وقته حتى يقطع الليل النهار وتولى الشمس الادبار .

وقد يعجب البعض لعدم اشراكنا هذا الامير في هذه الحفلات
 وهو ابن السلطان وولي عهده ووحيدته المحبوب . ولكن من كان
 يعرف هذا الامير ويعلم ما صار اليه امره في اواخر وقته من شرود
 غريب وميل للعزلة ومجانبة الناس يبطل عجبته ويعرف سببه .
 وما انقضى ذلك النهار واسدل الليل ستره على القصر ومن فيه
 حتى ارتدى الامير ثيابا بسيطة وامتنى احدى جواده وهم بمفارقة
 القصر . الا ان يدا امتدت من خلفه وامسكت بالعنان فتمت جواده
 عن السير . فالتفت الامير حاتما ليرى من ذا الذي اقدم على هذا الفعل
 فالقاه الياور حسن وقد انحى أمامه باحترام قائلا له (أيها الامير
 الخطير ان والدك السلطان العادل ارسلني في طلبك لالمشول بين يديه
 الآن) فبهت الامير ولولا ان الماعل هذا الفعل والفائل هذا القول
 هو الياور حسن لما تأخر الامير عن الحاق أشد الاذى به . أما للياور
 حسن فلا يستطيع معه ذلك فقد رباه صغيراً وهو فوق ذلك يتمتع
 بثقة السلطان . فاضطر الامير إلى الاذمان مكرها ونزل عن جواده
 وقصد الى حيث السلطان وما بلغ بابه حتى خلع دثاره وألقاه لأحد
 العبيد الوقوف بالباب فالتقفه منه وهو يدخل باب السلطان .
 انحى الامير أمام والده بخشوع تام قائلا (الامر للسلطان العادل)
 فقال له السلطان (اجاس يا فائز) فجلس الامير الى المنضدة وهو
 متمعض في نفسه فقال السلطان (خذ يا فائز واقراً) ودفع اليه

بالمطاريق الثلاثة واستمر يحدجه بنظره وهو يتصفحها وما أم
الامير قراءتها حتى علا وجهه الوجوم وظهرت عنى محياه امارات
الجزع فقال له السلطان وقد لاحظ عليه ذلك (تشجع يا فائز ،
فليس هذا بوقت الجزع) ثم استنرد قائلاً (أما النيل فلا أظن
أمره بالغ الخطر الأشد — فقد ارسلت اليه بمن يقوم بالواجب
نحوه فيكفيننا الله شره ويدبر علينا خيره . أما الصليبيون فانا كنفيل
بهم رابض هنا لهم — أما اهل الجنوب فموقوف أسيرك اليهم على
رأس حملة لردهم الى صوابهم)

فما سمع فائز بهذا حتى تعامل قليلا وقال (سمعت كلامك أيها
السلطان العادل — ولكنى ارجب البقاء هنا لملاقاة الصليبيين فأقاتهم
الى ماشاء الله) فقاطعه السلطان قائلاً بغضب (واذهب أنا لأهل
الجنوب لتأديبهم) فأسرع الامير قائلاً (أستغفر الله يا والدى
السلطان انى ما قصدت ذلك بل وددت لو كفيتك مؤونة الصليبيين
وهم أقوى من أولئك شكيمة وأشد بطشا — وان عملى هنا سيكون
بارشادك . أما حملة الجنوب فيقوموها غيرى ممن يثق فى اخلاصهم
السلطان) فهدأت نائرة السلطان قليلا لهذا الجواب وقال للامير
بهدوء وقد قطب وجهه (اسمع يا فائز — غداً تعند وبعد الغد تبرح
للجنوب متقلداً رئاسة الحملة فتأتينا بالنصر القريب باذن الله) ثم
زالت عبوسة وجه السلطان وبدأت ابتسامته الابوية وهو يكمل

كلامه بقوله (عندئذ تحتفل بك البلاد أي احتفال وتكرمك غاية
التكريم وازوجك بالاميرة « سهام » ربيتي وقد ربيتها لتكون
زوجة سالحة لك — تلك الاميرة التي حجبتها عنك طوال هذه
المدة وأعددتها لك لهذا الغرض ولسوف تحل لك بعد قليل لأني
أظن انه قد آن أو ان ذلك) فأجابه الامير (كن مطمئنا أيها السلطان
العادل اني لفاعل ما أمرتني به تارك ما نهيتني عنه . أما أمر زواجي
بالاميرة « سهام » فاني افضل ارجاء التفكير فيه الآن)

ثم انصرف الامير لحاله فامر السلطان وزيره ان يقوم للحال
بأمر تدبير حملة الجنوب وان يبلغ اوامر العدة والاهبة للحرب .
وما خرج الامير من حضرة السلطان حتى أمرع الودثاره فاخطفه
من العبد وارتداه وركب جواده وركله بمهازه فنهب الارض منها
في طريقه الى حدائق النيلوفر .

الفصل الثالث

جد الامير بجواده كى يتدارك ما فاته من وقت وما ضاع من زمن فى جلسته مع ابيه فامعن فى جواده لكزاً وركلا الى ان اوصله حدائق النيلوفر تلك الجنسات الفسيحة التى غرسها الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ثم تولاهم خلفاؤه من بعده بالتحسين والتنسيق فكانت بهجة المدينة وزينتها

وما وصل الى تلك الحدائق حتى ترجل وربط جواده من عنانه بفرع ناتىء من جزع دوحة ضخمة هناك كان قد اعتاد أن يجعلها مربطاً لجواده كلما زار الحديقة . وما اكثر ما كان ذلك . ثم سار مترجلاً متخاللاً الاشجار يتلمس طريقه بين عمرات تلك الحدائق وخنائها الى مكان ينشده مستضيئاً بنور القمر الذى بزغ فى الأفق فانار تلك الربوع الناضرة فزاد من جمالها وزادها حسنا وبهاء بأشعته البيضاء الهادئة .

طفق الامير يبحث هنا وهناك وهو خافق الفؤاد وقد أخذ الشك فى امكان العثور على ما يطلبه وينشده يتسرب اليه . فجعل ينادى بصوت مسموع : « جميلة » . . « جميلة » — أين أنت يا جميلة » ولكن لم يسمعه احد ولم يلب نداءه الا صدى صوته .

فاضطربت حواسه وامرعت انفاسه ومار يفتش على غير هدى بين
الاشجار وقد تخيل وجود جميلته بينها وذهب خياله لأكثر من ذلك
حتى شعر بانفاسها حارة تهب على وجهه . ولكن سرعان ما خاب
ظنه لما عثر على لفافة من الورق رآها على نور القمر موضوعة اسفل
خيله اعتادا أن يتلاقيا تحت أغصانها المدلاة فالتقطها بيد مرتجفة
وقرأ ما سطر عليها بغير الميل (١) وكان الآتى :

(سيدى جميل - انى آسفة حقا لعدم مجيئك حتى هذا الوقت
لسبب قد أجهله فمعدرة على عدم امكان البقاء لان اليوم كما لا يخفاك
عيد واخشى انتشار السوقة فى الطرق فيصعب على العودة الى الدار
بمفردى ليلا - يمكننا التلاقى بدوخ (الصفا) عصر الغد - جميلة)

وما كاد ينتهى من قراءة الرسالة حتى اشتد أسفه لمعاكسة القدر
إياه فى لقاء من يحب فى تلك الليلة القمرية - ثم سار بخطى بطيئة
نحو مربوط جواده وقد لعبت بعقله مختلف الافكار وهاجت فى رأسه
شقى الهواجس فناجى نفسه قائلا (ولكن - لا سمحك اللهم اذلم
القها الليلة . ولو كان تم ذلك لافتضح أمرى بلا شك وكنت ذا كرا

(١) أى للكحل وكان يقوم مقام القلم الرصاص المعروف
فى وقتنا هذا وكان يستعمل قديما للكتابة بين المحبين - انتهى
(المؤلف)

لها ما سببتم لي بعد الغد دون ترو فينكشف لها أمرى ويفتضح معها
مري قبل ان أهيء الامور لذلك وأستنبط قصة أرويهها لها فتبذني
عن موطن شكها وموضع شبهتها والا لأدركت بأنني لست (جبيلا)
المزعوم ابن ذلك التاجر الموهوم. ومتى عرفت حقيقة أمرى فستنفر
مني بلا ريب وتدرك أنني خادع إياها وغير جاد في أقوالى وأننى
أحاول ان أنزل منها أمرا أدا، فتعجرتنى وتبذنى وهنا الطامة الكبرى
والبلاء الذى ليس بعده بلاء. اذ كيف أقوى على الحياة بدونها
وهى سراجى المنير فيها ومنبع سعادتى ومصب آمالى وغدير حياتى
وبحر هنائى .

ثم قتل الورقة حضا وتلاوة على ضوء القمر الوداع إلى ان ساءل
نفسه قائلا (قالت لي أنها من طبقة العامة وانها بنت بستانى الحديقة
ولسكنها ككتبت لي فى رسالتها هذه تقول انها تخشى السوق فى
الطرقات ، ألا يمكن انها تخفى عنى حقيقةها كما أخفيها أنا عنها . واذا
كان الامر كذلك فليس بمستبعد أن تكون بنت أحد للضباط او
القضاة . وليكن ما يهم هذا وقد أحببتها حبا ملامك على عواطفى وحس
عنى إرادتى — فلا بد وان أحظى بها وتزوج منها ولو مرا —
مهما جلب عنى ذلك) — ثم ظهرت علامات الاصرار على أسارى
وجهه فقال (الى الغد يا حبيبتي جبهة) .

وصل المرابط فطوى كتابها فى صدره وقد قلبه كثيرا ثم ركب

جواده وانطلق به الى القصر وهو يفكر أثناء الطريق في أمر
مفاجئتها بسفره هذا الطارىء.

لم ينم الامير ليلته بل بات ساهدا في فراشه يقرب أوجه الفكر
ويستعرض ما قاله السلطان عن زواجه بالاميرة (سهام) وكيف يكون
أمره في ذلك ومن هي سهام هذه التي تشغل بال السلطان الى هذا
الحد وكيف انه لا يعرف عنها الشيء الكثير وانه لا يشعر بأى ميل
اليها ولم يرها أبدا في حياته وانه مهما كان من أمرها فبى لا ولن
تساوى جميلة بهجة فؤاده في شيء .

ظلت هذه الهواجس تطرا على مخيلته حتى أبعدت عن جفونه
طيف الكرى . وما أصبح الصباح حتى غادر فراشه وهو منقل
الرأس مشتت الفكر خامد الجسم فقضى سحابة نهاره في مقابلة القواد
والضباط وبعض رجال الدولة واطلع على الكثير من الخرائط والتقارير
لعدة غداته .

وما انقضى الظهر واقترب العصر حتى بعث السلطان في طلبه
فتوجه اليه فوجده متمطبا الجبين وقد استقبله محمدا قائلا له .
اسمع يا ابنى - قد سمعت عنك اليوم مالا كنت أود أو
أرغب سماعه .

فاضطرب الامير وقال

وماذا سمعت أيها السلطان العادل

فأجاباه السلطان (بلغنى انك تلاقى فتاة فى حدائق النيلوفر وان
بينكما علاقات غرامية فبعثنا عنها لاقطع رقبتها فما وجدناها اثرا
رغم البحث الدقيق — واماكنى واجدها بأذن الله)

فأصفر وجه الاميروزاد اضطرابه فاستطرد بالسلطان قائلا (والآن
عرفت سبب عزلتك وكآبتك وإحجامك مبدئيا عن السير بمحملة
الجنوب — أقلم يافأز عن كل هذا الفنى واعلم ان كل إنسان منزلة
وقدرا وقد أجل الله قدرك ورفعك الى درجة الملوك فتخاق بأخلاقهم
التي لقناك إياها وإيك والنزول عن ذلك . وقد وطنت نفسى على
منعك عن كل ما فيه أساءة لك ومساس بتقاليد وكرامة الدولة بجميع
الوسائل التي تكفل لى ذلك وقد تصادف ان قادنا الحديث معك أمس
إلى ذكر الاميرة (سهام) فاعلم اننى ولا بد مزوجك بها عقب غودتك
منصورا . ثم تهديج صوته قائلا « لكى أفضى وانا هادىء البال
مستريح الضمير وقد تركت تاجى ووصولانى فى يدمن يديق ان يتملك
على شعبي ويستحق عنى عرشى من بعدى — ورجبة فى وضع حد
حاسم للموضوع سأبحث بأحضار الاميرة سهام الى هنا الآن لمفاجحتها
أمامك ومحضورك بهذا الامر ولقراءة الفاتحة حتى يعلم الجميع رغبتى
هذه وإرادتى الواجبة الاحترام والطاعة »

ثم نادى السلطان ياوره ليطلب منه تنفيذ ذلك فأسرع الامير
الى السلطان متوسلا بقوله « ايها السلطان العادل — اى ابتاه

المحبوب . أستحلفك بالله أن لاتفعل هذا الامر والا قضيت على
 القضاء المبرم — انى مدين بطاعتى العمياء لك . وتقانى فى رضائك
 ولكن لا أستطيع ان أعطى قاي لمن لا أشعر بعاطفة نحوه . وانى
 أشهد الله ووالدى السلطان والاجميين لان تعلقى بهذه الفتاة وان
 تكن من عامة الناس لعظيم . وان حبي لها لهو حب أبدي سرمدى
 فيه خلود لروحينا وبقاء لنفسينا . وانى لا اعتقد يا أبتاه بوجود فتاة
 أخرى غيرها تصلح ان تكون اميرة لولى عهدك . انها لعلى خلق
 عظيم لا يوجد امثاله عند بعض الملوك . وان جمالها لمنقطع النظير
 قل ان يخلق الرحمن له مثيلا . فأضرع اليك ايها السلطان العادل
 ان تبقى هذا الامر كما وعدت من قبل حتى عودتى من الجنوب .
 فهز السلطان رأسه إشفافا على حال ابنه وقال « اذهب يافائز
 وأكمل العدة للغد ولسوف يقضى الله ما يأمر به — ولكن اعلم
 يافائز اذا انت خالفت امرى وخرجت عن طوعتى وحاوات الزواج
 من غير « سهام » فلسوف تقع على رأسك اللعنة والنقمة الى الأبد .
 فاهتز الامير من هول ما سمع وقال للسلطان فى هدوء وثبات
 ايها السلطان العادل فلنكن مشيئة الله جل وعلا فنحس لانك
 لانفسنا لاضرر ولا نفعا — انا اذهب لتنفيذ امر السلطان ولتدبير
 العدة لغدائى فاستودعكم الله الآن »

ثم انحنى أمام السلطان مسلما ونهض للذهاب فأجابه السلطان

بصوته الرزين (استودعك الله يا فائز وليلمك الله بما يصلح من
شأنك في دنياك وآخرتك)

ما خرج فائز من أمام السلطان حتى غير من زيّه وهرول إلى
النيل فاستقل قاربه الذي سار الهوبنا وهو يتهادى على الماء تحركه
المجاذيف وقد جلس فيه الأمير تحت مظلته مطرفاً غير آبه لما كان
يحيطه من المناظر الجميلة وبما يسمعه من تغاريد الاطيار وأناشيد
النوتية .

ما أعمر القلب الفتي بالحب وما أشد تعلقه به وما قيمة هذا
العالم الضخم والعرش الفخم والحراس والحشم والعبيد والخدم
وسائر كل هذه النعم لدى قلب الفتي الفتي إذا لم يبهج الحب ويتذوق
من كؤوس الهوى - وهكذا نسى الأمير كل شيء وسبحت أفكاره
إلى جميلة مستعرضاً وجهها الصبوح وقوامها اللدن ونظرات عينها
الخلابة وأحاديثها الحلوة الجذابة وروحها الخفيفة ونفسها الالوية الوثابة .
أخذ القارب في الاقتراب إلى الشاطئ رويداً وقد خفت سرعته
ورفع النوتية بمجاذيفهم لأعلا وأدار رئيسهم مكانه نحو اليمين فاشتد
خفقان فؤاد الأمير وما هي إلا لحظة حتى رسا القارب على البر تحت
ظل (العنقا) المحبوب فقفز أميرنا إليه وقد أمر النوتية بربط
القارب على مسافة من المكان حتى لا يرى .

في هذا معنى باننى لن ألقاك . . . ولكن كلا وألف كلا . . . هذا لن
يكون أنى تابعتك إلى آخر هذا العالم)

فقال لها وقد هزته شجاعتهما (محال تنفيذ قولك هذا يا جميلة .
اننى مسافر للحرب . سأقاتل أعداء السلطان)

فقلت له بلهفة (للحرب . . . أى حرب . . وما شأنك والقتال
ولست أنت من رجاله ولا من محترفيه)

فأدرك الامير حرج موقفه ثم أطرق قليلا وقال (كان أبى صباح
اليوم عند السلطان وساق الحديث ذكرى فود السلطان لو سمعت
ابنه الامير فائز الى الجنوب مع جنوده فلم أر ووالدى بدأ من طاعة
السلطان المحتمة علينا جميعا)

فاغرورقت عيني الفتاة بالدموع وقالت على الفور (تبا لفائز
هذا — اننى اكرهه ولو لم أره) فابتسم الامير عن يأس ولم يتكلم
فتابعت الفتاة قولها (وهل من سبيل الى ما بقى من أمل وحيد هو
التراسل) فأجابها (طبعا يا جميلة ما عليك الا أن تبعنى برسالاتك
إلى الامير فائز — ومنه إلى جميل — فتصلنى بلا مشقة وثقى بأن
حي لك هذا سوف يشدد من عزمى ويقوى من ساعدى فنتغلب
على هؤلاء القوم وأساعد الامير على النصر فأعود اليك سريعا —
والخذ منك زوجة ونعيش معا في رغد وهناءة) فخرت دموع
الفتاة غزيرة وتمانقا وأكثرا من التقبيل . .

بينما يغتربان في هذه المنبهة من كثوروس حبهما وهيامهما
اذ سمعا قرعا شديدا بالباب فاضطربا ونظرا كل منهما للآخر مستفهما
متسائلا .

تركهما الآن في حالتها المضطربة هذه ونعود الى السلطان -
فبعد خروج الامير من حضرته نادى ياوره وقال له « ابعث بمن
يستدعى الاميرة سهام الى هنا لمقابلتي » فدهش الياور في نفسه من
استدعاء الاميرة لهذا القصر لأول مرة ولكن علله بانه نتيجة لما
حدث أخيرا من المفاجآت .

وفي الحال أوفد من يستدعيها من قصر الربيع ، مكان إقامتها
الخاص وهو واقع في حدائق القصور ، ولكن الرسول عاد من
دونها فقال الياور للسلطان « لم نجد الاميرة في قصرها أيها السلطان
العادل » فدهش السلطان وقال بغضب « وأين تكوز . . .
» ابحنوا الى عنها وآتوني بها »

فعاد الياور من دونها ثانيا وقال للسلطان (قد علمنا أيها السلطان
العادل انها خرجت من قصرها عصر اليوم وقال حارسها الخفي انها
قصدت الى كوخ خشبي صغير لرجل درويش فقير مقام على النيل
في نهاية حدائق البشري يقال له (الصفا)

فقال السلطان (وما شأنها بهذا الكوخ) .. (اذهبوا واحضروها
لي حالا) ولكنه عدل وقال (انتظروا - سأذهب بنفسى فأعدوا
القارب السلطاني الازرق)

وما مرت دقائق حتى كان السلطان والياور حسن وبعض الحاشية
بالقارب في طريقهم الى (الصفا) وما وصلوه حتى صعدوا الى البر
وقرعوا باب الكوخ بالشدة التي اضطرب الامير وقتاته منها أي اضطراب
قالت الفتاة واجدة (أضرر بان هذا أبي) (فأهرب منه) فقال
لها الامير (مامن دأبى الهرب) فقالت (لا وقت للتفكير اهرب لاجبى
انا . ومن أجل حبنا الدائم) فادرك الامير مغبة الأمر ولم يسعه
إلا الرضوخ مرغما فقال (سأعمل فقط لارادتك وخيرنا) ثم عمل
على الفرار وقد عثرت اقدامه في هروبه بأواني نحاسية موضوعة
للزينة في الكوخ فقلبتها فحدثت ضجة سمعها الطارقون فزادت
الموقف رهبة وشددوا الطرق . الى أن صاح صائح (افتحوا -
السلطان . السلطان) ففتحت الفتاة وهي تفتفض خوفا وهلعاً وما
رآها السلطان حتى دفعها عن طريقه بعنف وهو يقول (مامعنى كل
هذا ياسهام)

فقالت (لاشيء أيها السلطان العادل لقد عثرت قدماي بهذه
الاولاني وانا مسرعة لفتح الباب)

فقال السلطان (دهبنا من هذا فقد يكون ذلك صحيحا ولكن
مامعنى وجودك هنا) فقالت الفتاة متلعنة (اتخذت هذا الكوخ
المهادىء أسما السلطان العادل لاقضى فيه ردها من الوقت فى هدوء)
فلم يقتنع السلطان بهذا الجواب وقال (فى هدوء - أى
هدوء هذا تنشدينه . والهدوء سائد كل الامكنة) ثم اقترب
منها متفرسا فى وجهها ثم قال (ولكن أرى وجهك مكفهرا وعلى
عينيك آثار البكاء)

فاعتري الفتاة خوف شديد وخشيت العاقبة ورأت أن تعتمد الى
الحية لاثارة شفقة السلطان فقالت متباكية (كنت هنا أبكى والذى
الذى قتلته بيديك وما برحت ذكره فى مخيلتى)
فأطرق السلطان وقد بدأت كلمات الفتاة تحرك عوامل الشفقة
فى قلبه فذهبت عنه بعض الوساوس فقال لها (وما كان ينبغي أن
يكون غير ذلك يا بنيتى - ولو كان الله قدر لايك أن يقتلنى لفعل
ولا نمكست الآية)

فأطرقت الفتاة وقد لاح لها ضوء النجاح فى ابعاد السلطان عن
الشبهة فى أمرها وقد اغرورقت عيناها وهى تبكى فراق المحبوب
الذى ذهب ليقاتل فى الجنوب فظن السلطان انها تبكى أباهما فضمها
الى صدره وقبلها قبلة ابوية وقد تألم لدموعها وقال لها (لا تحزنى

يا ابنتي - اذا كان أبوك قد مات فاني في مقامه ولسوف اجعلك
أسعد مخلوقة في البلاد وازوجك من ابني الامير فائز وتكونين
اميرة السلطنة ثم سلطانة البلاد بعد ذلك)

فهزت الفتاة رأسها وقالت بحزن لا أود أن اكون زوجة لابنك
أيها السلطان)

فدهش السلطان وقال (ولماذا ياسهام - ان ابني هو خير بهل
يصلح لك)

فقالت الاميرة أو الفتاة (أعرف ذلك أيها السلطان العادل إلا
انني لا أستطيع التزوج به ولن أكون زوجة له)

فقال السلطان (أنا واثق ياسهام اذا رأيتينه وعرفتينه ستغيرين من
رأيك هذا)

فقالت (انني لن أغير من فسكري ابدا - فاني أحب سواه
وسأزوج ممن أحب)

فبهت السلطان لساعته وجزع لهذا القول أشد الجزع وكان
صاعقة قد انقضت عليه فدفع الاميرة بغلظة عنه قائلاً

(ما هذا الكلام أيتها الخاسرة - لسوف احملك على احترام رغبتى
وإطاعة ارادتي)

فقالت له (أيها السلطان العادل . افعل بي ما يروقك)

فأجابها (دونك وأصمت أيتها الطفلة العاقبة لقد ربيتك صغيرة
وهيأتك للامارة والسلطنة والآل تـلقين بنعمتي وترفضين
هـلنمسي وأعبئين برضاي - فاذا لم تعودى الى صوابك سيكون لى
معك شأن غير هذا الشأن)

ثم تركها وهو على أشد حالات الغضب بعد ان كلف الياور بان
يصحبها الى قصرها وطاد برجاله الى القصر وكان أميرنا قد سبقهم
اليه - ولو قدر له انكشاف أسره بالكوخ لانقلب موضوع قصتنا
وكانت اتراحها افراحا ولا انتهت على أحسن حال ولكفانا مؤونة
التطويل والسكى القراء انقلق والشغف والتفكير وتحميل كل هذه
القرون الطويلة مناطق وما لانطبق واكن هكذا أراد الله فلا
مرد لقضاءه .

الفصل الرابع

أقبل الأمير بمحملة به إلى الجنوب بعد أن أوصاه والده بمجميل
الوصايا وزوده بشمين النصائح ونعى له السلامة والعودة بالظفر
المبين .

ترك الأمير السلطان فريسة للوحدة والوساوس لاسيما بعد
غضبه الأخيرة مع الأميرة « سهام » فكان كلما تذكر السلطان
حادثه معها انتابته آلام نفسية عميقة وفكر في أنه إذا أخذها بالعنف
وارغمها على الزواج بابنه فربما أقدمت على عمل قد يشين من أمر
الدولة وإن هو تركها لارادتها ربما تزوجت بمن اختارته فتجلب له
طراً لا يستطيع في اعتقاده محوه . فقرر أن يصلح الأمر بالحكمة
ورأى أن يحتمل له فشدد المراقبة على قصر الربيع وأوصى ياوره
حسن بزيادة الالتفات واليقظة .

مضت أيام قلائل انهمك فيها السلطان بأعداد العدة لملاحة
الصلبيين فكان ديوانه مجمعا للقواد ورؤساء الجند وأهل الرأي من
رجال الحرب حتى إذا كان ذات يوم دخل عليه رئيس الخصيان وهو
يرتجف خوفاً وارتمى على قدمي السلطان يطلب العفو وقد أمسك
بيده رقعة من الورق .

ولما سأله السلطان عما دهاه استمر في ركوعه وهو يقول :

« اطلب العفو أيها السلطان العادل »

فقال السلطان « ويح هذا الخنث -- ما خطبك يا نصف رجل »

فقال الخصى وهو يتلعثم (الاميرة سهام أيها السلطان العادل)

فقال السلطان جازعاً (ما أمر الاميرة -- تكلم) ففاه الخصى

بالفاظ غير مفهومة وهو يرتعد

فاضتد غضب السلطان وقال له (تكلم أيها السكب والا ضربت

عنقك) فقال الخصى وقد كاد الخوف ان يقتله وهاله بما رآه مرتسماً

على وجه السلطان . الاميرة سهام اختفت في هذا الصباح ايها

السلطان العادل وتركت هذه الورقة « فاختطف منه السلطان الورقة

وقراها على عجل فاذا بها الآتى : —

« مولاي — ابتاي — السلطان العادل . اصفح عن ابنتك

المسكينة واغفر لها زلتها التي سببتها اليها بمحاولتك التفرقة بين قلبين

تآلفا وتعاهدا على المحبة وروحين بريئتين قد امتزجتا وتعاونتا

وأزمنتا أن يقطعا معاً شوط الحياة في هذا العالم المليء بالغرائب

والامرار . فأردت أيها السلطان العادل أن تبيعني لمن لا أهبه قلبي

فوجدت انه حرام على ان أمكنك من ذلك إذ ان قلبي لم اعد اقتنيه

فقد ملكه من قبل رجل آمالي واحلامي

وبما ان وجودي الآن في بلاطك بعد هذا قد يجب لك بعض

المتاعب في الوقت الذي انت اخرج فيه الى راحة البال من اى زمن
مضى فانا ذاهبة عنك الى حيث لا أعلم . فاستودعكم الله واستحلفكم
يا ابتاه ان تلتمس لى العذر فى فعلتى هذه واننى غير ناسية لجميلك
على حتى اليوم الاخير من حياتى .
أستودعكم الله مرة أخرى .

ربيبتك البائسة — سهام»

ما قرأ السلطان ما فى هذه الورقة حتى اسودت الدنيا فى وجهه
وارتجفت اعضاء هذا الشيخ وكاد أن يسقط على الارض وكان قد
انتصب واقفاً فساعده وزيره الصالح على الجلوس فجلس ثم قال لاهناً
« ادركوها — ابحثوا عنها — فتشوا عليها »

فانطلقت الحاشية تنفذ أوامر السلطان الذى كان يناجى نفسه
بصوت مسموع قائلاً « أشهدك اللهم اننى لم ابغ سوى الخير .
والخير كله بغيت . لقد كان اعتقادى بأن ابنى هو خير زوج يصلح
لها وكان ولا يزال يقينى بها انها خير زوجة تصلح لابنى المحبوب
فعمدت إلى هذا من اول الامر وكان ذلك ايضاً وعدى لأبيها
وهو يموت بين يدى وقد كان شجاعاً كريماً

ربما لا تعلم أيها الصالح بقصتها للآن . وأدار السلطان وجهه نحو
وزيره واستطرد قائلاً بصوته الخافت

تقابلت مع ابيها منذ عشرين عاماً وجها لوجه فى ميدان القتال

في بيداء الشام . وكنت لا أزال أميراً وشاباً قوياً وكان تحت قيادتي جنود والدى المتعبة وقد اضناها الجهد واجهدها العطش والعدم عنها المؤونة ولم يكن يحركنا غير غيرتنا على الدين والوطن وكان والدها أميراً صليبياً . وعظما من عظماء الفرنجة . يقود هو الآخر فرقة من جنوده وهو يدافع أيضاً لأجل نصرته دينه ولم تكن حالة جنوده بأحسن من حالتنا . وما وقع نظرنا عليهم حتى هممنا بالقتال . الا انه كان نبيل الخلق إلى حد كبير . فأشار على بان نترك هؤلاء البرساء — أي جنودي وجنوده — ليستريحوا برهة ونتنازل نحن الاثنين سوياً بعيداً عنهم في الميدان . وأينا قتل رفيقه فهو الظافر — فادركت من هذا القول ما كانت عليه اخلاق صاحبي من النبيل والكرم . ولكن المسكين وقف فجأة وكأنه يعلم بخاتمته وقال لي « لي ملتصق الشمس منك » فأجبت « وما هو ؟ » قتالي « لي ابنة صغيرة ماتت عنها أمها بالطاعون وهي ترافقني قبل أن نشرد في هذه الممارك الاخيرة بالصحاري — والآن أنا بعيد الموطن والامل بعيد في الرجوع اليه . فان قتلتني فاني أوليك امرها من بعدى »

فاتفقنا على ذلك وتنازلنا زهاء الثلاث ساعات — وكان فارساً مقداما — الى ان قبض الله لي الغلبة عليه . فطعنته طعنة مجلاء اصابته منه مقتلاً فخر صريعاً وقد ذكرني وهو يحتضر بوعدى

فقلت له « اطمئن فسوف تكون كابنتي ، وسأزوجها لابني »
قلت هذا وأنا في شدة التأثر من الموقف ولم أع ما أقول .
ولكن ذلك أصبح وعداً على واجب وفؤوه
فابتسم لي وهو يلفظ نفسه الآخر وقال لي (شكراً أيها الشهم .
فليكافئك الله) واسبل عينيه واسلم الروح .

ثم استولينا على معسكرهم واخذت الاميرة الصغيرة وما زالت
مكرما ومدللا اياها للآن . وما ترعرعت حتى طلبت مني الاسلام
واخبرتني انها رأت رؤبة قابلت فيها والديها على شاطئ نهر اخضر
وهما مسرورين وقالوا لها « ألم تسلمى بعد يا سهام — ولم يكن هذا
اسمها — لقد اسلمنا نحن فاسلمى واطلبي لروحينا المغفرة من الله »
فاسميتها من حينها بالاسم العربي الذي اختاره والداها لها في
الرؤيا واشهدتها الشهادة في جمع من العلماء — آه يا الهى أنت اعلم
العالمين بما اضمرة واقوله . ثم التفت الى حاشيته قائلاً « ألم تجدوها
بعد . ألا سحقاً لكم . أيها الياور حسن . اذهب ولن تعود الا
بها . أفهمت أمرى هذا »

فاضطرب الياور وخرج من امام السلطان وقد تركه يبكي
فأبكي الحاضرين .

نعود الى سهام فكانت قد اظلمت الدنيا في وجهها عقب تصريح
السلطان وسفر جميل فحسبت لأقوال السلطان الف حجاب وخافت

ان يفاجئها بامر لا تحببه فازمعت على الفرار فجمعت ما تحتاج اليه
من حلبها وفادرت القصر في ذلك الصباح متنكرة في زي امرأة
عجوز بعد ان تركت كتابها هذا للسلطان .

وما بارحت حدائق القصر حتى قصدت البريد فارسات كتابا
وشيثا لجبل - عن طريق الأمير قاز - ثم ولات وجهها شطر البراري .
وما زالت تجتاز بلادا وتمر على قرى . حتى فرغ زادها وحل بها
التعب فجلست المسكينة لتستريح وهي تتلفت يمينا وشمالا خوفا
من أن يعثر عليها أحد أعوان السلطان ورجاله فيعيدونها اليه لينفذ
فيها وعيده

ولكن القدر الغاشم أرسل اليها بعض اللصوص فخرجوا
عليها وسرقوها وهي في امنها تستغيث ولا مغيث . وشاء بعض
قساة قلوبهم قتلها ولكنهم أبقرو عليها لشفاعة احدهم لها فاكثفوا
بتركها وهي على أسوأ حال

فقامت وهي نصف عارية تنتفض حزنا وفرقا وهي لا تعرف
الى أين المسير . فرفعت عينيها الجميلتين وهما مغرورقتين بالدموع
صوب السماء لتشكو الى الخالق ما أصابها من ظلم الانسان . ولتبتهل
اليه بان يشملها برهائه ويهديها الى ملجأ أمين - وما أنزلتهما الى
الارض حتى التقيتا بأعرابية عجوز من قبائل شرق صينا - اشفت
عليها وقادتھا الى خيامها . فدثرتها وأطعمتها وأضافتها عندها حيث

نالت الاميرة شيئا من الراحة وعادت الى نفسها الطمأنينة فكانت
ترعى للعجوز غنمها على سهول التلال القريبة المعطاة بالقليل من
الاعشاب الخشنة وقد أطلقت نكركرها العنان حول جميل وكيف
الاتصال به وشدة خوفها من السلطان

الى أن مضت أيام الهدوء - واذا بذات يوم هاجم الصليبيون
حدود مصر الشرقية يطاردون بعض القبائل التي تشاكسهم وتعكر
عليهم صفوفهم فعثروا على قبيلتنا هذه التي آوت الاميرة . وأعملوا
فيها السيف فقتلوا من ضمن من قتلوا منها مضيقتها العجوز المسكينة
واستولوا على الاغنام والعتاد وأخذت النساء الى أسواق الشام - ومن
ضمنهن الاميرة التي لم تنفعها توصلاتها اليهم - فبيعت المسكينة
لرجل فظ غليظ القلب كان يشتغل في كسر الاحجار من التلال
فكان يرغمها على العمل معه بضربها وسومها العذاب الاليم
مضت أشهر على هذا الحال المضى فكانت الاميرة تأكل
أردأ الاطعمة وتقامم الدواب التي كانت تعمل معها نهارا فراشها
على الترى ليلا . وما زالت كذلك حتى ثار ذات يوم عبد أسود من
عبيد سيدها . طالما سامة أنواع العذاب . فاتفق ان انهال عليه
ضربا بالسوط فقابل العبد الضرب بمثله فتداخل العبيد فكانت
اضطراب - انتهزت المسكينة فرصة حدوث ذلك وهربت من
أمرها .

ولكن القدر أبى عليها ألا ان تترع كأس المنطل حتى الثمالة
فازالت تجرى من رابية لأكمة . ومن سهل لهضبة . الى أن
أمطرتها السماء بوابلها فغاصت المسكينة في الوحول وسقطت فيها
وهي أقرب الى الموت منها الى الحياة حتى عثر عليها بعض أهل
النجاسة فاخطفوها الى مركبهم وسارت بهم حتى رست على
الشواطئ المصرية - حيث بيعت المسكينة مرة أخرى لامرأة عجوز
اشتريتها بثمن بخس . لضعفها ولاصابتها بعلة صدرية رزئت بها مما
أصابها أخيرا - فكانت المسكينة تسعل سعالا شديدا ولا يستر
صدر تلك البائسة النحيل سوى خرقه من القماش البالي

تلك سلالة الامراء وريبة الملوك وكانت بهجة السلطان
وربحانة قصوره - فسبحانك المعز المذل لك في كل آية حكمة .
وأنت على كل شيء قدير

لم يخفف فقدان سيدتها العجوز احدى عينيها من عنتها
وجبروتها التي صبتهما على تلك التعميسة صبا فكانت تغلق عليها
الباب خوفا من هربها وتضربها الضرب الأليم لأقل واقفه الاسباب
وكثيرا ماغشى على المسكينة من فرط ألمها ومرضها دون ان يستشير
ذلك شفقة تلك العاتية حتى كانت حياتها جحيا واي جحيم لا ينيره
غير سلواها بذكر حبيبها جميل واخلاصها لحبه الى ان علمت ان

لشمطائها ابن يقاتل مع حبيبيها في الجنوب فكانت ترقب حضوره
بفارغ صبر حتى تظهر بحجر من احبار ذلك الحبيب .

وعلى ذكره نقول ان جميل او الامير فائز البحر بالحنة صوب
الجنوب وكله امل بالنصر لكي يعود ويتزوج بجميله ، سواء
رضى والده السلطان بذلك او لم يرض - وهذا كان ما قد اعتم
عليه فكان موضع تفكيره طوال ذلك الطريق الذي زاد من
طوله رسو السفن كل يوم على بلد من بلدان الصعيد فيخرج لهم
اهلها ويقدمون بين الطبول والمزامير احسن ما لديهم من ما كول
ومعسول الى رجال الامير داعين لهم بالنصر المبين القريب .

وهكذا سارت السفن صاعدة في النيل حتى وصلت في صعيدها
الى قصيدها . فنزلت عنها الرجال وشدت الحبال . واقاموا معسكرهم
وجعل الامير يتفقد جنده ويصدر اوامره ويضع خططه ولم يك
هذا كله بصارفه عن التفكير بجميلته فقد كانت صورتها مطبوعة
في مخيلته حينما سار وأيما ارتحل .

وما استيقظ من نومه يوما في خيمته الكبيرة حتى وجد على
طاولة بجوار فراشه جملة مكاتيب ورسائل بينها ربطة كبيرة عليها
هذه العبارة (ترسل هذه اللقائف الى الامير فائز ولي عهد السلطنة
وقائد حملة الجنوب - ومنه للضابط جميل احد اعوانه)
فقم الامير في الحال الراسل لها فاضطرب وخفق فؤاده

وفضها على التوفوجد فيها سيفاً بديع الصنع حاد النصل وقد لفت
حواله رقعة كتب عليها « سيدى جميل - أهديك هذا السيف
لتقاتل به أعداء بلادك . وتعود الى قانزا - وأنا باقية على عهدك
مهما أصابنى فى ذلك »

جميلة

فسر أى سرور بهذا السيف والكتاب ولكنه لحظ شيئاً خفياً
بين تلك السطور أضاع تفكيره فيه دخول أحد الخدم عليه
وهو يقول « وصل هذا البريد صباحاً أيها الأمير فأحضرناه »
فاجابه الأمير « حسناً ياسالم »

مضت أيام قلائل ظهرت فيها بوادر الثوار ومن ثم بدأت
المعارك . فترك الأمير قليلاً فى معسكره وبين معسكره وفى مواقعه
التي ستطول تبعاً لطبيعة تلك البلاد وكر وفر الثوار واعتصامهم
برؤوس الجبال . ومناوشتهم جنود الأمير فى الامكنة المستترة .
مما من شأنه ان يطيل وقت القتال فى تلك الازمنة الغابرة

الفصل الخامس

جرت الايام التي استعرضنا فيها هذه الحوادث تباعاً - فكان
السلطان في معسكره بالشام بين ضباطه وجنوده وقد دار كثير من
المعارك بينه وبين الصليبيين - وقد ظهروا عليه في ابدى الامر
واستباحوا بعض ممتلكاته الشمالية الشرقية وخرجوا ودمروا
الكثير من القرى والعشائر مما وجدوه في طريقهم

ولكنهم لم يلبثوا ان عادوا القهقري امام جيوش السلطان الباسطة
فشردوا في وادي الشام بعد معارك طويلة متتابعة حتى كل الفريقين
عن القتال فعمد بينهما صلح شريف عاد على اثره السلطان الى مصر
وهو مرفوع الرأس وموفور الكرامة بينما كانت تأتي اخبار الامير
من الجنوب من حين لآخر بانتصارات جديدة وفتوح عديدة .
لم يبهج كل هذا قاب السلطان بل كانت تلازمه أبداً سحابة
من الهم وبساده دائماً ظل من الحزن مما زاد عليه آلام شيخوخته
وكبره فكان يدعو من وقت لآخر رجال بلاطه ويسألهم عما وصلوا
اليه في بحثهم عن الاميرة سهام فكانوا يجيبونه أبداً بالسلب حيث
انه لم ير احد وجه الياور حسن منذ فرت الاميرة

كانت سهام تقاسى شظف العيش والبؤس مع سيدتها المعجوز
الى أن عاد ابنها من ميدان القتال بالجنوب وقد برأ من جرح خلف

له شللا باحدى ساقيه وما وقع نظره على الامة الجديدة حتى أراد
 أن يجعل منها لنفسه تسلية ولهوا . حتى اذا ما تفاقم حاله معها ذات
 يوم ورأت وميض الشر يلعب في عينيه ولم تجد مناصا للتخلص من
 الوقوع فيما تذكره — اخذت جرة كبيرة وضربت بها راس ذلك
 العالج فشجتها وسقطا معا على الأرض — هو من فرط ما أصابه
 وهي لاعباؤها وخوفها — فعلا الصباح واقبل العسس فقادوها الى
 الخارج إلا انها تمكنت من الإفلات من أيدي هؤلاء القوم إذ حدثت
 شجرة كبيرة في الطريق فانهزتها فرصة وهربت من أيدي آسريها .
 فانطلقت تعدو المسكينة على غير هدى وهي تصرخ مستغيثة
 الى ان اصطدمت برجل كان يسير فسقطت على الأرض أمامه فاخذته
 الشفقة عليها ومد يده ليقبليها من عنقها ولكنها ما وقعت عينها على
 وجهه حتى تراجعته مذعورة وجمده هو في مكانه وكان قد أدركها
 الشرطيان فابعداها عنها هذا الرجل وقد وقف ذاهلا — وما تبينه
 الشرطيان أيضا حتى خرا على الأرض ساجدين بينما تقدم هو اليها
 وهو يقول (لقد حان سعدي واقبلت الدنيا على بعد الادبار)
 حاولت الفتاة التملص منه إلا انه قال لها (أيتها الاميرة المبهجة
 أرجى عبدك المسكين وعودى معى الى قصر السلطان فهو فى انتظار
 بجيئك) فقالت له
 (اتركنى أيها الياور لحالى فلان أستطع العودة الى القصر) فقال لها

أينها الاميرة. اعدك بان السلطان لن يحاول زواجك بعد الآن
بالامير فائز . ثم أمسك بها بلطف وقادها الى هودج ركبته الى القصر
وهو لا يصدق ساعته

أما ذلك الصعلوك وقد وصل أخيرا الى المكان لعجز ساقيه فما
رأى ذلك حتى تواري عن الانظار وحمد الله على المصاب ورضى
من الغنيمة بالاياب

قصد الباور القصر بعد طول غياب عنه قضاء باحنا منقبا لم يترك
بلدة أو قرية الا وجابها . وسأل أهلها . واستجد بحكامها . مما لم
يفده ذلك شيئا . ولم يكن يدور في خلدته ان ضالته سوف يعثر عليها
بجوار القصر وعلى قيد خطوات منه

ما وقع نظر السلطان على الاميرة حتى بكى وخر لله ساجدا
وترامت هي على قدميه تقبلهما والدموع تنهمر من عينيها وهي تقول
(الصفيح يامولاي) فرفعها عنهما برفق وهو يحجبها (لقد سبق
الصفيح يا ابنتي فإني كنت يامهام ، وما بالشكك قد تغير وصوتك
قد حج وعيناك الناضرتين وقد ذبلتا ، تسعلين ، انت تسعلين
يامهام . اسرعوا اسرعوا دفتوها . احضروا لها النطاسي
لمداواتها — اسرعوا أيها الرجال اسرعوا . احمدك اللهم احمدك)
استلقت سهام على فراشها الوثير يحيطها عشرات الجوارى
والوصائف الحسنان ينتظرن اشارة منها أو كلمة من فيها — وما

اطمأنت على نفسها حتى اصرعت بالكتابة الى جميل معتذرة عن
انقطاعها عن مراسلته هذه المدة التي طالت وطال معها أمر حمة
الجنوب وقد سبب ذلك للامير بعض الهم وتسربت الى قلبه
الهواجس ونفذت الى رأسه الوسوس وكان يكتر من أخباره في رسائله
وهو غير عالم بان المسكينة لا تتسلحها وهي تائمه في مناكب الارض
وانى لصاحب الصفا أن يجدها وهو لا يعرف عن هويتها شيئا
من قبل حتى تكدست الرسائل لديه . فقال الأمير لنفسه يهذي
(لا ريب ان جميلة قد نسيتك يا فائز ، ولكن أياكون قد أصابها
مكروه ؟ كلا . لا أظن ذلك ، لا أظن ان التقدر يجرؤ على
النيل من هذا الجسم الغض والوجه الغتان) — وما زالت به مثل
هذه الافكار حتى أتاه كتاب جميلة الاخير بعد عودتها فكان
سروره به لاحد لوصفه .

وما هي أيام حتى انتهى القتال بالنصر فكتب الأمير الى السلطان
ينبؤه بذلك ويقرب عودته ففرح السلطان حقا كثيرا واستعد لملاقاة
ابنه المحبوب .

كان الأمير في طريقه الى مصر يدبر في عيالته حفلة الزواج بجميلة
والمعدات الكثيرة التي ستقام لذلك — وفي كيفية الحصول على اذن
السلطان بعد هذا النصر العظيم وأرسلت الأميرة سهام من اختصتها
ووثقت بها من جواربها الى كوخ الصفا وحصلت من صاحبه

على الرسائل المسكدة لديه فكان فرحها بها عظيما وحفظتها معها في فراشها تقرأها رقبها حين تغفو وحين تصحو. الا ان خروج الجارية وتردها على كوخ الصفا اثار بعض الشكوك — وخاصة وقد اشتدت الرقابة على كل من يدخل القصر ويخرج منه. فقبض عليها ذات مرة وفتشت فوجد معها رسالة من الاميرة لجميل فأوصلوها بها الى السلطان فقرأها ووجد بها الآتي

« سيدي جميل ببطانة الامير فأنز — أنا شاكرة لفضلك وطايزة عن الافضاء بما أكنه لك وانني لست بنامية عهودي وسأكون قريبا شريكة حياتك .
جميلة »

بهت السلطان لذلك وقال لوزيريه « نلخط خطها ولكن من هذا اللعين الذي سبب لنا كل هذه الآلام — اكتب لفاؤز حتى يحضره لنا مكبلا بالحديد — ولكن لماذا تدعو نفسها بجميلة » ثم احتد وقال للجارية « من هو جميل هذا يا لعينة يابنت اللعين »
فاضطربت الجارية وسقطت على أقدام السلطان وهي لا تخرج جوابا فقال لها « ان لم تقولي ضربت عنقك » فقالت له .

« أيها السلطان العادل — اني لأعلم شيئا وانى فقط أوصل الرسائل الى صاحب الصفا فقال السلطان « آتوني أيضا بهذا اللعين » فأحضره فسأله السلطان وهو غاضب عن جميل وما يعرفه عنه فلم يحجر الرجل جوابا حيث لم يكن يعلم شيئا وكان شبيغا ضريرا فأطاد

عليه السلطان القول « ألا تعرف جميل هذا » فأجاب الشيخ
(أيها السلطان العادل - انى لا أعرف جميل هذا ولا أعرف
جميلة ولم أرها في حياتى لانى ضريب - وكل ماى الامر ان جميل هو
محسن من المحسنين اعتمد التصديق على الفقرى وكان كوخى مستودع
لرسائلهما وقد أعطيت من يومين الرسائل التى كانت مكدسة لدى
هذه الجارية »

فاستشاط السلطان غضبا وقال لحاشيته « ضعوا هذا الدجوز
وهذه الجارية في برج الالباسة الى أن أمر بدق عنقهما » . ثم التفت
إلى الياور حسن وقال له « يا حسن - أريد الحصول على هذه الرسائل
من الاميرة - أفهمت » فاطاع الياور الامر وذهب الى الحر ملك
للاتصال ببعض الوصيفات .

وبعد يوم عاد للسلطان برزمة من الرسائل ولما فضاها قرأ في
احداها الاتى .

« محبوبتى جميلة - وصلنى مكتوبك وأشكر الاقدار التى أوصلت
رسائلى اليك أخيرا - انى لا أائق كثيرا بصاحب الصفا هذا ولا أبرر
له هذا التأخير - قريبا ان شاء الله سأعود وانى معد كل شىء
للزواج .

جميل
ماقرأ السلطان هذه الرسالة حتى أخذ وصاح قائلا انى داهش
ياحسن من هذه الطلاسم ان هذه الرسالة بخط فائز ابنى ولكنها

مذيلة بأسم جميل . يا ألهي ألا تكون جميلة هي سهام وجميل هو
فأز — أسألك اللهم لعون والهداية . ثم دفع بالكتاب الى حسن
الذي قرأه ثم فكر قليلا وقال للسلطان وهو يفتن الرسائل الأخرى
ويقارن خطوطها « أيها السلطان العادل لاشك ان جميل هو الامير
فأز بعينه وجميلة هي الاميرة سهام لانها بلغني أن الاميرة سهام
كثيرا ما قصدت النيلوفر بمفردها مساء وكما سمعت أيها السلطان العادل
أن الامير كان مغرما بفتاة يلاقها في حدائق النيلوفر وقد بحثنا عنها
كثيرا فلم نعثر لها على أثر . وان صحت فراستي فلا بد وان يكونا قد
تحابا سرا دون أن يعرفا بعضهما وأخفي كل شخصيته عن الآخر .
فأضطجع للسلطان الى الخلف وقد رفع رأسه وأغمض قليلا وقال
يلوح لي انني فهمت الآن كل شيء — لقد أجادا المسكينان لنفسيهما
الاختيار ولاكنهما قد أساءا سلوك السبيل . ولكني أحمده الله
فقد تحققت أمنيتي وابتهج قلبي وأتأجج صدرى ولا يزال عندنا
متسع من الوقت لتدارك الخطأ »
وهنا يستأذن الطبيب في الدخول على السلطان ليفضي اليه
بشيء فيأذن له فيدخل .

الفصل السادس

دخل الطبيب على السلطان فسأله الأخير عن حالة الأميرة فقال له الطبيب .

(أيها السلطان العادل ان الله قادر على كل شيء ولو أن الأميرة اليوم أحسن مظهراً إلا أنها ساءت حالاً في اليومين الأخيرين عن ذي قبل لأن الداء قد تمكن من صدرها ولكن رحمة الله واسعة وقدرته فوق كل قدرة)

فكان جواب الطبيب هذا غير واضح . فاضطرب السلطان له وقصد الى حيث مرقدتها فوجدتها على فراشها هادئة تجمل عينيها الغائرتين في الغرفة فاقرب منها وقد هاله اصفرار لونها وخمود حركتها فربت على جبينها الذي برز وقال لها (تشجعي يا سهام . يقول النظامي أنك اليوم أحسن حالاً وما أظنك إلا كذلك)

فقالت سهام (أحمد الله أيها السلطان العادل حقاً أني أشعر الآن بسرور داخلي وراحة في صدري فقدتهما من مدة طويلة — أنا اليوم سعيدة) فقال لها السلطان « حقاً يجب أن تكوني كذلك فعندي أخبار تفرحك »

فتنهدت وقالت في هدوء « وما هي يا أبتاه » فقال لها السلطان

« ان فائز سيعود قريبا » فاكفهر وجه الأميرة ولكن السلطان قال « اسمي يا سهام فاني لم اكمل كلامي بعد—أت فائز هو جميل وما جميلة إلا سهام — وعندى البرهان » فاسمعت الفتاة حتى جحظت عيناها استغرابا ودهشة وخفق فؤادها بشدة وهبت من فراشها رغم ضعفها ومرضاها وهي منفعلة وتقول

« أحقا هذا أيها السلطان العادل— ألا يكون هذا تغرير جديد

لفتاة بقيمة ضعيفة قد انهكها المرض »

فأجلسها السلطان برفق إذ حشى معبة تلك الانفعالات فقال لها « اليك البرهان » ثم دفع اليها بالرسائل فنظرت اليها ثم نظرت إلى السلطان وقالت « وأيضا سرقوا رسائلي من مخدعي » فقال السلطان « ابنتي العزيزة كان هذا لازما وعرفنا به الحقيقة التي غمت عليكما من مدة وسببت لكما الآلام والآن سيكون لكما كل هناء » فقالت الاميرة « لا أستطيع أن أصدق الهناء بعد كل هذا الشقاء » فأجابها « أقسم لك برب العرش أن ما قلته لك هو الحقيقة الناصحة التي علمتها اليوم واليوم فقط »

فنظرت الفتاة اليه ثم شهقت شهقة طويلة أعقبها بصرخة عالية ومالت الى فراشها وقد أسبلت عينيها ثم فتحتهما بينما كان صدرها يرتفع وينخفض بشدة وقد اختلجت أنفاسها فقالت بصوت بطيء

منخفض .

« أحييتي يا جميل انك فائز ، هذا سار ، سار جدا ،
قلبي مبتهيج ، وبدق بسرعة فرحا ، حتى يخال لي أني خائفة .
ولكن ما بال أوصالي ترتجف هكذا ، وأنفاسي حارة ، ولكني
أراها حارة أكثر مما يلزم ، صدري يؤلمني .. أكاد أطير من فراشي ..
امسكوني ... أرى كل شيء يرقص أمامي طربا ... ولكني أتألم ...
أتألم أشد الألم - ها أنى أرتفع .. أرتفع من للفراش .. ما هذا ..
بح صوتي .. يد قاسية تخنقني - بالله يا ابتاه امنعها - ألا تراها -
اختنقت .. اختنقت - وقفت أنفاسي - آه - قلبي - قلبي يقف -
آه آه - جميل ... جميل أين ... أين ... ت »
وهنا سقط رأسها الجميل على الوسادة وأطبقت عينيها إلى الأبد
أسرع اليها الطبيب ولكن ما الذي يفعله هذا المسحكين أمام
الموت . فقال له السلطان وهو ذاهل وقد فتح فاه « ما بها - ماذا
مم تتألم »

فكرر فحصها الطبيب ثم نكس رأسه واستشهد وقال « ماتت
الاميرة سهام أيها السلطان العادل »

فمقط السلطان الى الأرض ولم ينبس ببنت شفة وقد كاد أن
يغشى عليه فنقلته الحاشية وهو صرعد الاوصال ذاهب البال الى
فراشه فأرقدوه عايه ولازمه الطبيب ، ولما أفاق من الصدمة طفق
يبكي ويبكي الى غضب الدمع فقام من فراشه وهو يقول « أوقدوا

الشموع - اسرجوا القناديل - ما بالكم لم توقدوها ما دام الظلام قد حل والليل قد دخل - أين النور - النور يا حسن «

فصمق الجميع إذ كانت أشعة الشمس تملأ الغرفة ولكن السلطان أضحى لا يرى شيئاً فقد تلمس طريقه في الغرفة فعثر بأنية أزهار اقتطف منها شيئاً وصار يعاونه ياوره حتى فراش المائة فوضع عليها هذه الزهور بعد أن بكى بكاء يفتت الأكياد .

صدرت الأوامر بكتمان الأمر عن الجميع لقرب وصول الأمير ووارى السلطان الأميرة العزيزة التراب بجناز بسيط صلى عليها هو ووزيره الصالح وياوره حسن وحمل النعش ثلاثة من العبيد حتى حدائق النيلوفر فدفنوها بين الزهور والرياحين ثم أقاموا لها بعد أيام ضريحاً كان يختلف إليه السلطان مرات في اليوم يقرأ عليه القرآن ويضع عليه الورد والريحان ويذرف عليه الدمع الهتان ثم يعود إلى قصره بنفس كئيبة حزينة وقلب ممزق محطم .

نادى المنادى في المدينة بأن الأمير فائز ابن السلطان سوف يصل في الغد مظفراً منصوراً .

فقامت المدينة على بكرة أبيها وخرجت لاستقباله مكافأة له على انتصاره وما أن وصل حتى قابله في خارج المدينة الوزير الصالح والياور حسن وباقي رجال الدولة والبلاط وهنأوه بالانتصار

وبسلامة العودة ، فسأل عن والده السلطان فأجيب انه بخير .
وسار الركب تتقدمه الموسيقى والاعلام حتى القصر فاستقبله
السلطان وهو معصوب العين ورحب به واثني على شجاعته ولكن
الامير تأثر لهذا وسأل والده عن سبب ربط عينيه فعزى السلطان
ذلك الى رمد بسيط قريب الشفاء . فتألم الامير لذلك ودهش لما
رآه مخبيا على القصر من الكآبة والحزن رغم الاعلام الخفاقة
والطبول الدفاعة ولما لم يعرف لذلك سببا قصد جناحه في القصر
ليستريح .

وكان أول عمل عمله أنه بعث لاحضار صاحب (الصفاء) ولكنه
علم أنه مسجون بأمر السلطان فأسقط في يده إذ وثق بأن والده
لا بد وقد كشف أمره وخشى على حبيبته فسمى حتى اتصل بالدرويش
السجين ببرج الابالسة وكان قد نسيه القوم في سجنه بعد موت
الاميرة ومنه علم الامير بان جميلة لم تكن إلا سهام وأن سبب حبسه
عدم معرفته ومعرفتهم لشخصية جميل .

فطار لبه فرحا إذ علم أن محبوبته هي الاميرة سهام التي طالما رجاه
والده السلطان ليزوجه منها ، فظن أنه قضى الامر وأصبح زواجه
أسهل من السهل فاسرع الى السلطان ليخبره بأمر هذا الاكتشاف
السعيد .

ولكنه ما قابل السلطان وكاشفه بالامر حتى وجد منه وجوما
وصمنا كئيباً فحار في أمره ودهش لتغير هذا الحال فقال له الامير
(ما بالك يا ابتاه حزينا كئيباً — ولكن كان ينبغي على أن أراى
مرض عينيكم — ولكنى ظننت ان هذه مفاجأة سارة لك . وعلى كل
سأرجىء هذا الامر لحين شفائك . ولكنى سأذهب للاميرة على الفور .
فقال له السلطان بصوت مبجوح (لا . لا نذهب لايجب عليك
ذلك . سأسوى الامر بنفسى حينما يتم شفائى) ثم تهد السلطان وقال
(وأمل أن تكون بعد ذلك مسروراً)

فادرك الامير ان فى الامر سرا مكتوماً عليه وصمم على كشفه
فسأل أهل القصر عن الاميرة ولكن ما من أحد اجابه اجابة شافية
وكان النكل قد اعتصبوا عليه . فازدادت حيرته وباتت الوسوس
تلعب برأسه .

وما أصبح صباح ليلة قضاها فى سهاد لم تذق فيها جفونه لذة
الكرى حتى نزل الى الحدائق للرياضة ولكنه دهش إذ رأى السلطان
يخرج فى هذا الوقت المبكر على خلاف المألوف وقد استند الى
الياور حسن ليرشده الى طريقه وما من احد يتبعه كالعادة

تبع الامير والده عن كئيب وقد اضطرب لرؤيته وقد عصب
عينييه وما زال خلفهما حتى بلغا من الحديقة مكاناً قصياً أخفته

الاشجار اليابسة عن الانظار وتوسطه كومة من الاحجار فرأى
السلطان ينحن بجوارها منتجباً والياور يمسح من مدامعه فاضطرب
الامير وحار فيما رأى واقترب رويداً وما تبين تلك الاحجار الناصعة
وفهم ماسطر على جدرانها حتى وضحت له الحقيقة المرعبة . فصرخ
صرخة هائلة شقت سكون ذلك المكان قائلاً (ما هذا) فدعروا
السلطان وقال وهو يحاول أن يعثر بابنه

(ما أتى بك إلى هنا . أي بنى فائز . ارجع ليس هذا مكانك)
فقال فائز صارخاً (أبى . أبى هل ترقد هنا سهام) فعثر السلطان
أخيراً بفائز فضمه الى صدره وهو يقول له « تشجع يا فائز رحم
الله سهام فقد مانت شهيدة الاخلاص والوفاء لك . وانا لله وانا اليه
راجعون . ومصيرنا جميعاً الموت »

ولكن فائز لم يبال باقوال السلطان هذه فقد ارتخت وارتعدت
أوصاله وانحنى على القبر يقبل احجاره بلا وعى وهو يتأزره الماء
وكان ناراً تكوى أضلاعه .

لم بقو السلطان على هذا كله بعدما رآه من حالة ابنه فاصفر وجهه
واختل توازنه وقال بصوت مخنثق « أي فائز وداعاً يا بنى » وسقط
على الارض جثة هامدة .

لحن الامير المسكين من هذا الموقف فكان تارة ينحن على والده

مقبلاً ، وطوراً إلى القبر مولولاً . بينما وقف الياور يمسك ماخوذاً
مذهولاً وقد جحظت عيناه إلى أن أمسك بالامير وقاده إلى القصر
وهو يهذي هذيان المحبولين وقد طار عقله وفقد لبه .

مرعان ما انتشر الخبر بين رجال البلاط وبين القواد والجنود ثم
سائر أفراد الشعب بان السلطان والاميرة سهام قد ماتا وان الامير
فائز جن من فرط حزنه على الاميرة . فاختل الحال وكثر الطامحون
إلى العرش من باقى الامراء وغير الامراء فاننتشر الاضطراب وعمت
الفوضى كل مكان . ونشبت المشاغبات فى الطرقات بين الشيع
والاحزاب . فسالت الدماء وتناثرت الاشلاء .

واجترأ المأجورون على مهاجمة القصر لاجراج من اعتصم فيه
من رجال الدولة السالفة . فقفلت أبوابه ، وتحصنت الجنود خلف
دروبه ، واندلعت ألسنة اللهب فى المدينة . فكان المنظر فظيماً
مخيفاً . فاقتاد الياور حسن أميره المحبول وبعض من بقى فى اخلاصه
له الى (قصر الصيف الصغير) على شاطئ البحر (١) حيث أقام
الامير فيه أياماً كانت أسوأ أيام راتها حاشيته فكان يأتى كل يوم
بالغريب من الفعالم والمحزن من الاقوال

(١) لا تزال بعض اطلال هذا القصر باقية بالقرب من مريوط

الآن . انتهى « المؤلف »

حتى إذا بزغ فجر أحد الايام لبس الامير لباس الحرب وتقلد سيفه المحبوب الذي أهدته اليه الاميرة سهام المتوقفة وخرج من القصر الى البحر . فتبعه الياور حسن وقد هاله الامر وقال له بلطف « إلى أين أيها الامير » فقال له الامير « أستودعك الله يا حسن . أنا ذاهب لملاقاة والدي وراء البحر . لأنني أشعر بقوة خفية تجذبني اليه ويلوح لي انه في حاجة لمعاونتي . »

« انظر . انظر . ألا تراه بعيداً ، يسير على الماء وهو يشير إلي بيديه أن أوافيه . ألا تسمع صوته الحنون . انه يطن في أذني بإيقاعه العذب . يا حسن أستحلفك بالله ان لا تغضب جميلة حتى أعود يوماً اليها . أرجوك أن تسهر على راحتها وألا تدعها تهاكو أمراً أو تتألم من شيء » .

فسمع الياور هذا الكلام من الامير حتى تفتت كبده ولكنه تشجع وتبسط على يد الامير قائلاً « إلى أين انت ذاهب أيضاً أيها الامير المبهجل » وهم ان يمنعه ويعترض طريقه فما كان من الامير الا ان دفعه بقوة بعيداً عنه وامر ع الى امتشاق حسامه وطوح به في وجه الياور وهو يقول :

« أجننت يا حسن أتمننى عن اجابة أمر والدي . اليك عنى والا مزقتك اربا . ان والدي يأمرني أفهمتنى الآن » .
فذهل الياور الا ان الامير اسرع الى قارب صهيف تركه صياد على

الشاطئ . فركبه وحرك مجاذيفه فأسرع الياور مرة أخرى اليه
وغاص في الماء خلف القارب حتى ابتل نغذاه وهو يتوسل اليه ان
يرجع عن عزمه ولكن الامير كان قد ابتعد فألقت على الياور بالسيف
وهو يقول له « خذ هذا السيف ربما تفعلك في ساعة من ساعات
محتك » ثم سار بقاربه صوب اللجة المتلاطمة وهو يصرخ للياور
بقوله « إياك وجميلة اني سأعود حتما اليها » الى ان غاب وسط
الامواج العالية

فوقف الياور يراقبه مبهوراً وقد سار في الماء الى صدره ثم الى
كتفيه . ولما لم يجد فائدة لرد القدر عاد بأقدام متناقلة وعين دامعة
وقلب دامي إلى القصر ومنه رجع قافلاً إلى المدينة فسار فيها على غير
هدى وقد أمسك بالسيف الى ان قادته قدماء كما اعتادت ذلك قديماً
إلى قصر السلطان فوجد نفسه أمام ابوابه المهشمة المحطمة وقد اغلقت
بعد ان كانت لا تقفل ابداً ، لا ليلاً ولا نهاراً . ورأى المتسولون
والمسولات وقد جلسوا حلقات حول اعمدة مدخله يعف عليهم
الذباب . وقد نام منهم البعض على درجات سلمه التي كانت تقف
عليها حراسه الموشاة ملابسهم بالذهب الابريز .

ثم تخيل الاميرة سهام وهي تتبختر مع حورياتها حول برك
حدائقه . وتذكر السلطان في عظمته وأبهته في مجلسه وقد اصطف

حوله رجال الدولة ثم الامير فائز بوجهه الصبوح وهو يجرى
بجواده بين أفنية القصر وميادينه وما صحى من ذهوله حتى علم ان
كل هؤلاء قد ذهبوا إلى عالم آخر .

اسودت الدنيا في وجه حسن ورأى عيون من أحبهم وطاش لهم
واجذلوا له العطاء وكأنها تنظر اليه من عليائها قائلة له « ماذا تفعل
بمفردك من بعدنا يا هذا »

فأطرق يفكر ثم قلب السيف الذي اعطاه له الامير قبل أن
تبتلعه امواج البحر وتذكر قوله له « خذ هذا السيف فانه ينفعك
في ساعة من ساعات محنتك . . . »

فثارت نفسه عليه وامسك بالسيف واعمده في صدره فسقط
يتدرج على سلم القصر جثة هامدة ، وقد اجتمعت حوله المارة
ينظرون اليه وهو يتلوى ويلفظ نفسه الاخير . . .

الخاتمة

هنا صكت خال فؤاد هنيهة ازدرد فيها لعنبة ثم قال « وهكذا انتهت هذه القصة المفجعة » . . . « ضعى ياسوزان مئزرك على كتفك اذ أرى الجو قد اظلم وبرد . ولسكن مابال فؤاد قد تأخر كثيرا »

فاضطربت سوزان وقد علقت بذهنها هذه القصة المؤلمة وقالت « اننى ياوالدى اشعر بانقباض فى صدرى لهذا الغياب فوق انقباضى الشديد من سماع هذه القصة »

فحاول ان يجيبها على قولها ولسكن تهلى وجهه بفرح فجائى وقال لها « انظرى الى بعيد . . ليس فى هذه الجهة . . الى يمينك قليلا . . هاهو شبح القارب آت . . . » فتهدلى وجهها بشرا - ثم اخذا يراقبان القارب وهو يقترب من الشاطئ شيئا فشيئا - تارة يعلو وأخرى ينخفض بين الامواج . وما اقترب حتى شاهدا شخصين فيه ثم تبينا ان أحدهما هو فؤاد وان الآخر قد مال بصدوره اليه فدهشا لذلك واستمرا فى مراقبتهما رسا القارب على الشاطئ فنزل منه فؤاد وهو يدين الآخر وما وقع نظر رب الدار على هذا الشخص حتى صاح فى وجهه

مهللا وانحنى عليه مقبلا اذ عرفه لوقته بأنه والد فؤاد وقد كان
بالبحر فانقذه فؤاد من الغرق بعد ان غرق مركبه الذي كان به وطاه
به سايبا الى البر .

وهكذا أرادت قدرة الخالق أن تجميع الشمل بعد طول الفرقة
فيالها من ساعة سعيدة مباركة

ولم تمض بعد ذلك برهة حتى عرف فؤاد والده والوالد واده
وعلمت سوزان بالحقيقة وقد أخذت الدهشة منها كل ما أخذ
صعد الجميع الى دارهم وقد آذنت الشمس بالمغيب وهم على ما هم
عليه من غبطة وحبور.

وبذلك ختم هذا اليوم على هذه الأسرة بالسعادة وظلت الدار
سحابة من الهناء . فهل يقول القارئ، الاكن شيئا عن مبالغ صحة
نبوة ذلك المنجم في هذه القصة بعد مضي هذه القرون السبعة
وهل آن لمصر بعد اجتماع هذا الشمل أن تنفتح لها أبواب المجد
بعد ذل وهوان دامنا عصور طويلة

هذا ما تمناه ومنتظره ونعمل له وأصبح باذن الله قريب

التحقيق

المهابة